



ISBN: 229786

صفحات من الذاكرة الفلسطينية

DS
125.3
.566
A3
1992

١٠.٣

رقم ١

تذكارات

ابراهيم صنوبر

< ٧



اشراف
د. علي جرباوي

تنفيذ

لبني عبد الهادي

أيار ١٩٩٢



تقديم

يعتبر مشروع "صفحات من الذاكرة الفلسطينية" أحد المشاريع الرئيسية التي ينفذها مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني في جامعة بيرزيت. ويهدف هذا المشروع إلى الالامه بصورة فاعلة في عملية توثيق المرحلة الحديثة من التاريخ الفلسطيني اعتماداً على منهجية التاريخ الشفوي. وتقوم فكرة المشروع بالأساس على أن التاريخ لمرحلة معينة من تجربة خاصة ، أكانت لفرد أم لمجتمع أم لقضية ، يقوم في أحد مناهجه المهمة على تجميع فسيفسائي لتذكريات وروايات من عايش الأحداث وخبرها ذاتيا ، وربما كان له في تشكيلها أسلوب أو تراثاً معيناً أو إيضاح . ومن فسيفساء المعلومات المجمعة يتوقع أن تتشكل صورة تاريخية متكاملة ، أو اقرب على الأقل للتكميل ، من الاستناد إلى الرواية الرسمية التي تحاول دائماً التفرد واحتكار تفسير مسلسل الأحداث والمتغيرات بما يرتفق في ذلك الوقت لصاحب القرار . فالتأريخ صنعة كما عهدناها دائما ، لا تخلو من امكانية التحييز في محاباة السلطة والنفوذ ، واصحاب السلطة والنفوذ ، فتشدد رواياتها - خاصة الرسمية - على ذكر وابراز مجموعة من القضايا والوقائع ، في حين تقوم من ناحية أخرى باهمال أو استطالة قضايا ووقائع أخرى . وبالطبع ، يبقى ما يحكم الاختيار في نهاية المطاف مستندًا إلى الكوامن والدفوع المصلحية لمن يقوم بالعملية التاريخية .

في غياب سلطة وطنية فلسطينية ، تعاقب على فلسطين سلطات خارجية ، وغاب عنها السجل التاريخي النابع منها ، حتى وإن كان رسمياً وانتقائياً . وعوضاً عن التعامل مع جوانب النقص والسلبيات التي قد يتضمنها السجل التاريخي الرسمي ، يجد دارس تاريخ الحقبة الفلسطينية الحديثة نفسه أمام تسجيلات تأريخية رسمية لهذه الحقبة قامت بها سلطات خارجية تعاقبت الحكم على البلاد ، وسجلت تأريخ حكمها كما أرادت له ان يبرز للعيان . وأمام هذا الواقع انبرى العديد من الدارسين والباحثين الفلسطينيين في محاولات جادة لتفكيك ما كان احکم من سجلات تأريخية للحقبة الفلسطينية الحديثة ، وادى الى تغييب العديد من الحقائق والواقع ، وذلك في مهمة لاعادة كتابة تاريخ فلسطين برؤية ووعي فلسطيني . وتحلقت حتى الان في هذا المضمار انجازات ذات شأن .

ويأتي مشروع "صفحات من الذاكرة الفلسطينية" أسلاماً متواضعاً في الجهد الفلسطيني المتواصل لاعادة كتابة تاريخ فلسطين الحديث فلسطينياً . ويرمي هذا المشروع إلى



تجميع روایات قد تسهم في أحد مستوياتها التحلیلية بسُدّ فجوات وثفرات تفصیلية هامة لترمیم الصورة التاریخیة الشاملة للحقبة الفلسطینیة الحدیثة . وفي مستوى تحلیلی آخر يمكن لهذه الروایات ان تشكل نافذة واسعة ينظر من خلالها الى صورة متكاملة تبين ملامح الحقبة المشار إليها ، فتصبح بمجموعها مدخل ملائماً لاستخدام الدارسين والباحثين اثناء عملية تقویم تاریخ فلسطین الحدیث .

يقوم المشروع اساساً على اجراء مقابلات مع اشخاص - كل على حدة - كان لهم دور في مجال من مجالات الحياة الفلسطینیة العامة . وتشتمل المقابلات على تسجيل ما يتذكره الشخص ليس عن مراحل حياته المتعاقبة فحسب ، وإنما تداخلات هذه التذكريات عن السیرة الذاتیة مع ما دار حولها من احداث وتطورات ترصد التغير الذي شهدته المجتمع والبلاد من وجهة نظر الراوی أيضاً . وبعد تسجيل المقابلات وصياغتها بلغة تستهدف الحفاظ على السلامة اللغوية من جهة ، والاحتفاظ بنكهة المقابلة في منهج التاريخ الشفوي من جهة أخرى ، يتم اخذ موافقة صاحبها النهائیة عليها ، ومن ثم تصدر في مطبوعة مذيلة بوثائق وصور منتقاة .

وبما أن المقصود أن يبقى هذا المشروع مستمراً ، يجري ضمنه تسجيل تذكريات متواالية لأكبر عدد من الأشخاص ذوي الإسهام في مجال أو أكثر من مجالات الحياة الفلسطینیة العامة ، فإنه يسعى لتحقيق غایات محددة ثلاثة . أولاً ، تجميع تذكريات ذاتية لا أكبر عدد من الأشخاص ، ولكن بمنهجية تحافظ وتحاول إبراز الفصوصية الفردية لكل حالة شخصية . فكل حالة خصوصيتها ، في مجال الحياة ، وفي الواقع والتجارب والأحداث التي أثرت على سیر الحياة ، وفي المقدرة على التذكر وسرد مجرى الحياة . ولذا ، فلكل حالة وجهة نظر مميزة وعبر يمكن ان تستخلص منها . ولذلك أثربنا نقل وقائع الروایات كما ارادها وروها أصحابها ، بأقل قدر من التدخل في المضمون سوى هذه ملاحظة مفالة واضحة ، او اكتشاف فجوات او هفوات تاریخیة مؤکدة . وعلى هذا الاساس ، يفترض بالدارسين والباحثين التعامل مع كل حالة من هذه التذكريات على اساس أنها رواية ذاتية جرى تلقينها ، ولكن لم يتم تحقیقتها . فهي مادة تبقى اولية ، نعتقد بقيمتها و أهميتها ، ونقدمها لذلك للمهتمين ليقوموا بدورهم بمعالجتها ، واستخلاص ما يجدون فيه غایتهم منها . ونحن على الاعتقاد بأن كل واحدة من هذه التذكريات تتضمن ما قائمها بذاته ، و يمكنها لذلك ان تشكل بذاتها ولذاتها وحدة كاملة .

وثانياً ، إن توالي تجميع الروایات واهتمام التذكريات سيؤدي بالضرورة الى تراكم مجموعات منها تتعلق ب المجالات محددة ، كالتعليم او الصحة على سبيل المثال ، ومدن فلسطینية



معينة . ويدراسة التقاطعات والتباينات التي تمنحها التذكارات المختلفة عن حقل معين او مدينة معينة يمكن الشروع بعملية تجميع لفسيفساء معلوماتية يمكنها في نهاية المطاف ان تشكل صورة جديدة اكثراً تكاملاً عن ذلك الحقل او تلك المدينة .

اما الغاية الثالثة فهي السعي للاسهام بتشكيل رؤية متكاملة عن تاريخ فلسطين الحديث . فكل رواية تسجل ستتشكل جزءاً اضافياً من هذا التاريخ ونحن يحدونا الامل بأن استمرار تسجيل التذكارات سيؤدي في نهاية المطاف الى تشكيل الصورة الاكثر تكاملاً لتاريخنا الحديث ، خاصة لحقب منه خلت ويمكن ان يتضيئ بعض من جزئياتها ودقائقها ان هي بقيت مدفونة في صدور من عايشها واسهم في صناعة جزء من احداثها ووقائعها .

و قبل اختتام هذا التقديم يجب الاعتراف بأننا قد نواجه بتساؤلات ، وربما بانتقادات ، حول الكيفية التي تم بموجبها انتقاء الرواية . ويجب ان نعترف بدأبة بأننا كنا بالفعل انتقائيين ، مستهدفين الشروع من نقطة بداية غير محددة بصورة منهجية ، على ان يتشعب الاستمرار لاحقاً في تنفيذ المشروع بناء على تقيين التوصيات التي تتلقاها من الرواة انفسهم ، ومن محتويات تذكرياتهم ، ومن مجموع الدارسين والباحثين والمهتمين في مجالات الحياة الفلسطينية الحديثة

قام بتصميم مشروع "صفحات من الذاكرة الفلسطينية" ويشرف على تنفيذه د. علي الجرباوي . يجري الدراسات لهذه السلسلة ويقوم باعدادها واصدارها فريق عمل من داخل المركز مؤلف من لبنى عبد الهادي ، بسام الكعبي ، عبد الرحيم الدور ، اضافة الى مجموعة من الباحثين غير المتفرغين من خارج المركز . ويعينا ان هذا المشروع لم يكن ليخرج الى حيث التنفيذ الا بعد اقتناع العديد من الاشخاص بجدواه واستعدادهم ليكونوا فاتحة الرواية . الى جميع مؤلاء نقدم جزيل الشكر والعرفان .



الذكريات

حدثنا ابراهيم صنوبر عن طفولته قائلاً:

مع بداية القرن العشرين، وفي حارة "الحبلة" التي تشكل الجزء الشمالي من البلدة القديمة لمدينة نابلس، ومن أسرة يعمل راعيها في صناعة الأحذية، خرجت الى الحياة عام ١٩٠٤ منتسبا الى عائلة صنوبر. وأصل عائلتي كما علمت، من قبيلة عربية يمنية تدعى قبيلة طيء، هاجرت الى الشمال بعد خراب سد مأرب، ودخلت في الإسلام سنة ٦٣٠ ميلادية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن أشهر رجالها الشاعر حاتم الطائي، وكانت لنا شجرة نسب موجودة عند العائلة في مدينة السلط. وقد هجر جدي الأكبر قبيلة طيء ملتجئاً إلى قبيلة عباد الموجودة في منطقة البلقاء في الضفة الشرقية والتي تضم عشيرة "الصنايرة" حتى يومنا هذا.

لم يكن المبني الذي شهد ولادتي، وعشت فيه طفولتي والمرحلة المبكرة من صبائي ، يختلف عن المباني القديمة التي ضمت ساحة يحيط بها العديد من الفرف تقاسها أسر العائلة حسب الحاجة . وكانت عائلة صنوبر بأسراها تقطن في هذا المبني الذي اشتراه جدي. وكان بيتنا هذا الذي هدمه زلزال سنة ١٩٢٧ مبنياً من حجارة تتميز بالقوة والصلابة تسمى الحجارة الكفرية. وكان طول الحجر الواحد من كثير من أحجارها يتجاوز المتر.

وعن والدي يقول:

ذكرت أن والدي كان يعمل في صناعة الأحذية والسؤال الذي يراودني دائماً ولم أجده جواباً حتى الآن هو : لماذا احترف والدي هذه الحرفة ولم يتبع أباءه في صناعة الصياغة؟ فالمعلوم أن الولد كان في تلك الفترة من الزمن يحترف بالغالب حرفة أبيه.

إبان الاحتلال التركي لفلسطين كانت الجنديّة تعني الموت. فمن التحق بالجيش التركي كان لا يعود في أغلب الأحيان. فقد كان ثلج قفقاسياً بانتظار من ينجو من الملاريا والأمراض القاتلة في اليمن. وكان الخلاص من الإلتحاق بعساكر الأتراك والموت المؤكد لا يتّسّى إلا بالهروب القانوني. ولا يتحقق مثل هذا الهروب المحمي بغطاء قانوني إلا بالزواج من



فتاة غريبة عن نابلس، إذ إن القانون التركي كان يمنحك شهادة الإعفاء من الجندي لكل ساكن مدينة يتزوج من فتاة غريبة. لهذا السبب تزوج والدي، مثله مثل كثيرين من أبناء نابلس، من فتاة قروية من قرية برقا التي تقع شمالي مدينة نابلس، وتنسب هذه الفتاة التي هي والدتي إلى عائلة "عمر".

لا أعلم السبب الذي منع والدي من الزواج مره أخرى. فقد كان أبناء المدينة ينتظرون انقضاء المدة القانونية المحددة للإنخراط في الجندي ليعاودوا الزواج من فتاة مدينة.

شهد عام ولادتي وفاة والدتي التي رحلت ببوباء الكوليرا الرهيب، تاركة لوالدي أعباء تربية طفل، وأخ يكبره بـأعوام ثلاثة، وأخت لم تتجاوز الخامسة. وكان لعمتي إسهام كبير في تربيتنا جنباً إلى جنب مع والدي المنهمك في توفير لقمة العيش للأسرة.

أذكر أن محمد الفتياني، وهو عميد عائلة الفتياني القادمة من القدس والمقيمة في نابلس، كان يسكن في جوارنا، وأمه من عائلة صنوبر، وكان ذا شخصية محببة وقوية، أنيقاً ووسيماً. وأكسبه ديوانه العامر دائمًا بالناس والأصدقاء شهرة مميزة في الحي والجوار. أما العائلة المتنفذة في حارة "الحبلة" فكانت في ذلك الحين عائلة "النمر".

ويذكر أبرايم صنوبر مدینته:

أذكر أن مدينة نابلس في ذلك الوقت كانت محصورة في حدود البلدة القديمة، بين بوابتها الشرقية من جهة وبوابتها الغربية من الجهة الأخرى. وكانت البيوت متGANSAة البناء داخل البلدة القديمة التي كانت بباباتها تغلقان مع غروب شمس كل مساء وحتى الفجر. وكان على من يريد الدخول إلى المدينة أو الخروج منها في فترة إغلاق البوابتين أن يلجم إلى فتحة صغيرة في كل بوابة تسمى "خوخة".

لم تكن أسواق المدينة متخصصة، وأشهرها كان سوق التجار القديم وسوق التجار الجديد وسوق البصل، وهي أسواق ضيقة تكتظ بال محلات المتلاصقة. سمعت من والدي أن

الحياة بصورة عامة، والحياة التجارية بالتحديد، اتسمت عموماً بالتعاون والإخاء في تلك الفترة. فالتجار وفقاً لرواية والدي، كان رحيمًا بجاره. فإذا ما توافر لتجار ما ربع وفي لم يحظ جاره بالإقبال عليه في يوم معين، كان الأول يلجمًا إلى تخيس بضاعته ويدفع الزبائن للشراء من جاره ليعم الخير الجميع.

نظراً لطبيعة موقع نابلس الجغرافي ومحدودية الأراضي الزراعية المحيطة بها من ناحية، واستئثارها بصناعة الصابون التي اعتمدت فيها على شراء زيت الزيتون من محيطها الفلاحي من ناحية أخرى، نمت المدينة لتصبح مركزاً تجاريًا رئيسيًا للبلدان والقرى المحيطة بها. وكان أهالي هذه البلدان والقرى يأتون بمحاصيلهم الزراعية إلى نابلس لبيعها وشراء حاجياتهم منها، حتى أصبحت المدينة تلقب بـ“بقالة القرويين”. وباستثناء العائلات صاحبة الأموال والقطاعيات الكبيرة، كان أهالي نابلس في معظمهم فقراء، لدرجة أن مالك العشر ليرات ذهبية كان يعتبر “مؤلفاً” (أي يملك الفاً من القروش).

في عام ١٩١٦ أغلقت المدارس أبوابها بسبب الحرب واستيلاء الجيش على المباني المدرسية وتحويلها إلى ثكنات عسكرية للجنود. كان والدي لا يزال على قيد الحياة، ولكنه لم يعد يعمل، في حين أن أختي كانت قد تزوجت من ابن عم لها يقطن في المنزل نفسه. في تلك الفترة اشتربت مع أخي في دكان لبيع متطلبات الجنود بصورة خاصة. وكان الأتراك يخزنون المؤن في المستودعات التي تسمى “الدبّويا” والتي تقع مكانها الآن دائرة الأشغال العامة.

ما زلت أذكر صفقة تجارية تمت بين أخي وضابط نقليات. فقد أعلنت فرقه نقليات هذا الضابط لسكان المدينة عن حاجتها لاستبدال كميات متوافرة لديها من الذرة مقابل الشعير الذي كان شحيحاً وضرورياً لإطعام الخيول. خشي أهل المدينة من قيام الجيش بمصادرة الشعير في حالة إعلانهم عن امتلاكه. ولم يتقدم أحد سوى أخي لإجراء عملية التبادل، وكانت في اعتقادي مربحة جداً إذ إن الذرة كانت تباع بسعر أعلى من سعر الشعير. وكانت مهمتي عندما قدم الجيش إلى بيتنا لتسليم الشعير بدل الذرة تقديم الخبز والجبن إلى عساكر العربات.

كان الديوان يشكل مركزاً أساسياً للروابط وال العلاقات الإجتماعية . وكانت بعض العائلات العربية الغنية تحفظ لنفسها بديوان تجري فيه مناقشة مختلف القضايا الإجتماعية والسياسية والأدبية والعلمية . وكانت ليالي الإثنين من كل أسبوع مخصصة لقراءة "البردة النبوية" للشاعر البوصيري .

شكلت المقاهي المنتشرة في أرجاء المدينة مراكز التسلية والترفيه . وأنكر منها "مقهى الشيخ قاسم" و "مقهى المنشية" حيث كان يجتمع الشبان والشيوخ للعب طاولة الترد و درد الشدة .

مخاطر كبيرة أن يتحدث الشاب مع فتاة أو يلتقي بها . لذا كان موضوع الزواج من مهمات النساء اللواتي يذهبن لرؤية العروس واستطلاع مزاياها . ومن أبرز مظاهر رؤية العروس تقديمها القهوة للزائرات الفضوليات، فإذا ما نالت الإعجاب والقبول وصفت للعرис وأهله بأنها "مؤدية" ... عليها هاليانس ... ما حكت ولا كلمة" . ومن المخاطرات النادرة التي ذكرها أن إحدى النساء جاءت إلى بيتها حاملة معها مهرها وعارضت على أخيه أن يتقدم للزواج منها، حيث كان أخي يعتبر من أجمل شبان المدينة.

كان شهر رمضان على الدوام شهراً مميزاً في نابلس، يصوم فيه جميع أهل المدينة كباراً وصغرى . وأنذر أن توزيع أموال الزكاة كان يتم في السابع والعشرين من هذا الشهر كما ذكر من الأغنياء الذين كانوا يوزعون الزكاة الحاج سعيد عبد المجيد وبذوي عاشور.

"مجيدي" و"بشك" و"متلوك" و"قبق" و"برغوث" هي أسماء لفتات العملة التركية المتداولة في المدينة . كان "المجيدي" المصنوع من الفضة كالبرغوث وربع المجيدي أشهر فئة متداولة في العملة . وأنذر أن "البشك" و"المتلوك" كانوا مصنوعين من النحاس مثل "القبق" . أما إسم المجيدي فأطلق نسبة إلى السلطان عبد المجيد . وكانت هناك أيضاً ليره ذهبية عثمانية وإنجليزية وفرنساوية .

كنا في تلك الفترة نستعمل الفحم والحطب وقوداً. وشكل استيراد "بريموس" الكاز من السويد حدثاً كبيراً وانقلاباً عظيماً في حياتنا، وأدى إلى الحد من الاعتماد على الفحم والحطب، فالسعر المناسب لمادة الكاز التي كان يؤتى بها من منطقتي قفقاسيا ورومانيا، وارتفاع القوة الشرائية للعملة المتداولة جعلت من المتسير أن ينتشر "البريموس" ويستعمله الناس بمختلف فنائهم. ومع توافر مادة الكاز أصبحت شوارع المدينة تضاء بمحاصب الكاز التي كان يشعلها في المساء ويطفئها في الصباح موظف خاص من البلدية. ولكن انفراج الناس بعد "البريموس" لم يستمر طويلاً. فمع احتدام لهيب معارك الحرب العالمية الأولى اختفى الكاز من المدينة، واقتصر استعماله على الأغنياء. أما القراء فكان لا بدّ لهم من العودة لاستعمال سراج الزيت ومادتي الفحم والحطب. وكان من المقيم جداً في هذه الحرب أن لم يكن مستغرباً أن يمرّ الإنسان عن جثة ميت في الطريق دون اكتراض ، وإن يأكل بعض الناس قشور البرتقال بدلاً من الخبز، وإن يفتش البعض الآخر عن حب الشعير في روث الحيوانات. أما شبكات المياه فلم تكن معروفة في المدينة. وكانت "القربة" التي يحملها السقاء وتتسع لأربعين لترًا من الماء هي الوسيلة المتبعة لإحضار المياه من عيون الماء المنتشرة في جميع أحياء وأطراف البلدة القديمة. أما الأسر الفقيرة التي لم تتمكن من شراء ماء السقائين فكانت نساؤها يذهبن بأنفسهن لإحضار الماء بعد غياب الشمس.

أقيم المستشفى الوطني في عهد الأتراك ، وساهم أهل المدينة مساهمة فعالة في عملية بنائه، لأنهم اعتبروا العمل في ذلك واجباً دينياً يقترن بالثواب. نقلت إلى المستشفى المذكور إثر إصابتي بمرض التيفوئيد، وكان والدي يقوم باتفاق جميع ما كنت أستعمله داخل البيت لاعتقاده بأنّ مرض التيفوئيد من الأمراض التي تنتقل بالعدوى . وأنذر من أطباء المستشفى مديره "نور الدين بك" التركي الجنسية ، الذي كان نادر المثال بكل ما في هذه الكلمة من معنى : علماً وخلقًا وجمالاً وكمالاً . كان يأخذ خمساً وثلاثين ليرة ذهبية راتباً شهرياً ، يرسل منها خمس ليرات لوالدته في إسطنبول ، وينفقباقي على نفسه والقراء من المرضى الذين كان يزورهم في بيوتهم . وقد كثُر القول بأن دخوله على المريض في بيته ، كان في بعض الأحيان كافياً لشفاء المريض دون أي علاج. وفي يوم وفاته أغلقت متاجر المدينة بأسرها حزناً لأول مرة في تاريخها على ما أرجح ، وخرج الآلاف من رجال المدينة وأطفالها وراء النعش يبكون وينشدون البردَة النبوية وخلفهم الآلاف من نساء المدينة باللبسة الحداد



يُ يكن ويصرخن بصوت واحد قائلات " مع السلامه يا نور الدين بيك " ، ولا يمكن لانسان مهما بلغ به الخيال ان يتصور مشهدا كهذا قبل ان يراه من حيث المهابة والاجلال والتعظيم والاكباد . وقد دفن في المستشفى ويشاهد قبره الان هناك .

وكان من ابرز ما قام به بعد ان قلت العلاجات في الحرب العالمية الاولى ، ان حضر من النباتات الكثير مما كان يحتاج اليه المستشفى من علاجات . أما خليفته الذي اقتدى به فهو الدكتور حافظ كنعان الذي لم يعش طويلا بعد سلفه فمات . وقامت المدينة جميعها بتشييع جنازته .

أنكر أنه كان في عهد الأتراك (تلغراف) . وأنكر أن موزع البريد كان يأتي كل ثلاثة أيام من يافا ، حاملا بريد المدينة على حصانه المميز بما عليه من أجراس يعلن طنينها وصول البريد للمدينة . أما الدواب وعربات النقل التي تجرها الخيول فكانت الوسيلة الوحيدة للتنقل والسفر من نابلس إلى المدن الأخرى .

وتوافرت في تلك الفترة على الطرق محطات للعربات واستراحات للركاب والخيول ، ذكر منها محطة المسعودية ومحطة عنبا . أما السيارات ووسائل النقل الميكانيكية الأخرى فلم تعرفها المدينة إلا بعد نشوب الحرب ودخول الألمان فيها . في ذلك الوقت أصبح ضباط الجيش التركي ينتقلون بالسيارات .

وعندما سأله عن الأحوال الإجتماعية في تلك الفترة أجاب:

ساد النظام العثماني إبان الحكم التركي الذي شجع هيمنة العائلات ، وساند الإقطاع . وبموجب نظام الإقطاع كان على كل أمير إقطاع أن يرسل عددا من "الخيالة البواردية" لموازنة الجيش التركي في حملاته وحروبها . وفي مقابل ذلك كانت اسطنبول تقدم الدعم المادي والمعنوي لأمراء الإقطاع من العائلات المتنفذة . ومن أبرز هذه العائلات في محيط منطقة نابلس كانت عائلة عبد الهادي التي كانت تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي في القرى ، وعائلة النمر التي كانت تمتلك جميع أراضي سكة الحديد الواقعة شرقى المدينة ،

وعائلة طوقان التي كانت تقسم الى الأغوات والبقوات (طوقان آغا وطوقان بك). وكانت هذه العائلات تشيّد لسكنها المباني الكبيرة المساحة، الكثيرة الغرف، والمحصنة ببوابات ضخمة.

كانت مدينة نابلس مركزاً لمتصريفه تابعة لولاية بيروت تحت الحكم التركي. وكان المتصريف يقوم على رأس الهرم الإداري في المدينة، وهو تركي الجنسية عادة، ومكان إقامته سرايا الحكومة، وهي عبارة عن مبني كبير ضخم يقع في البلدة القديمة. وكانت دائرة البلدية تلي المتصريف في الهرم الإداري بالمدينة، وكانت أقرب ما تكون إلى مؤسسة حكومية، فلم يكن نظام الانتخابات معتمداً، بل كان يتم تعيين أعضاء المجلس البلدي من قبل السلطات. أما رئيس البلدية فغالباً ما كان من زعماء الإقطاع. وأنذر من الأشخاص الذين سلّموا رئاسة البلدية الشيخ عمر زعير إلا أنه لم يكن من زعماء الإقطاع.

بعد المتصريف ودائرة البلدية كان منصب الفتى يلي بالأهمية، وكان الفتى يحصل على منصبه عن طريق انتخابه من قبل علماء المدينة فيصبح رئيساً لهم. ويحضرني في هذا الصدد أن انتخاب أحد العلماء مفتياً للمدينة في مرة من المرات لم يحظ بتأييد أحد الوجاهة، فأرسل مذكرة احتجاج إلى بيروت تحمل أختام ما يقرب من مئتي عالم من علماء المدينة مدعياً عدم موافقتهم على انتخاب الفتى. وأثارت هذه المذكرة غضب الوالي في بيروت الذي كتب إلى متصريف المدينة متساءلاً: كيف يصل إلى كرسى الفتى ذلك الشخص وبين يديه "مضبطة" موقعة بأختام مئتي عالم يعترضون على ذلك؟

حول المتصريف استفسر الوالي إلى مأمور النفوس. وبعد إجراء التحقيق تبين أن جميع أصحاب الأختام كانوا من الأموات المنتقلين إلى رحمة الله تعالى. واتضح فيما بعد أن صانع الأختام في المدينة كان قد كلفه الوالي المذكور بأن يحفر بسرعة أختام المضبطة.

إلى جانب المتصريف والمجلس البلدي والفتى، كان هناك عضو "مجلس المبعوثان". أي البرلمان العثماني. وكان مقر هذا المجلس في العاصمة إسطنبول، وأنذر أن الحاج توفيق حماد من نابلس كان عضواً فيه.

أما في التقسيمات الإدارية فكان مركز المتصرفية في المدينة الكبرى نابلس والقائم مقامية في طولكرم وجنين، تتبعها إدارة النواحي الأصغر حجماً. وكان مدير الناحية يقيم عادة في قرية مركزية، تتبعها عدة قرى مجاورة. ومن الأمثلة التي أذكرها مدير ناحية قرية صفا القريبة من رام الله.

دأبت السلطات التركية في فترة الحرب الأولى على ملاحقة كل من يشترك في الحركة الوطنية العربية الداعية إلى الاستقلال والتحرر. وكانت تعاقب كل من يعارض سياستها أو يقوم بإثارة مشاعر القومية العربية. وأصدرت المحكمة العرفية في عاليه من لبنان أحكاماً بالإعدام على العديد من الوطنيين العرب، أذكر منهم الحاج حسن حماد وسليم عبد الهادي وحليمي الفتياوي الذي اختبأ مدة طويلة داخل غرفة مغلقة على شكل خزانة في منزل والده محمد الفتياوي هارباً من تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحقه. واستطاع حليمي الفتياوي أن يقيم علاقات جيدة مع الضباط الألمان القادمين لدعم تركيا في حربها، وكانوا يجهلون هويته ويلعبون معه ورق الشدة في منزل والده. وكان حليمي الفتياوي قد التجأ بعد الحكم عليه وقبل مجئه إلى نابلس إلى زعيم جبل الدروز، حسين باشا الأطرش، الذي وفر له الحماية وأنقذه من حبل المشنقة التركية، وأوصله إلى نابلس بحراسة رجاله. ومما يقال أن جمال باشا، الحاكم التركي لبلاد الشام، شاهد حليمي الفتياوي بأم عينه خلال زيارته لجبل الدروز، ولكن لم يتعرف عليه.

بوήه عام يمكن وصف العلاقة التي كانت بين مواطني المدينة والسلطة التركية بأنها لا تختلف في مضمونها عن أية علاقة تقوم بين المحتل الأجنبي والمواطن الأصلي. وأستطيع القول أن العلاقة اتسمت بالتعايش بين الطرفين حتى تشكلت جمعية الإتحاد والترقي (التي كان شعارها : العدالة والحرية والمساواة) في عهد السلطان عبد الحميد، دكتاتور الإمبراطورية العثمانية الذي اشتهر بجهاز مخابراته وجواصيسه المنتشرين في جميع أنحاء البلاد العربية. ولما كان من أهم أهداف الجمعية المذكورة الإطاحة بالسلطان диктатор، فقد وجدت تأييدها ودعمها وترحيبها بين أوساط سكان مدينة نابلس. وعلى ما أذكر أن المدينة شهدت تحريضاً متزايداً ضد السلطة، وأصبح شغفها الشاغل قيام ثورة على السلطان عبد الحميد. وكان ديوان عائلة التميمي مركزاً للحركة الوطنية، تم فيه حلف يمين المناهضين لعبد الحميد.



بعدم خيانة الحركة الوطنية. كنت عندئذ في المرحلة الإبتدائية، وعندما سالت والدي عما يجري أجابني أن الثورة ستقوم ضد عبد الحميد. وبالفعل، أطيح بالسلطان عام ١٩٠٩، وترسم كخيال في ذاكرتي صورة مظاهرة كبيرة خرجت في نابلس قادها شخص كان يركب جملًا.

وعن تعلمه قال ابراهيم سنوبر:

كان والدي أمياً لا يعرف القراءه والكتابة، ولم تدخل أخي المدارس. أما أخي فقد سبقني في رحلة العلم والتعلم، وشغل وظيفة "وكيل خرج" في المستشفى الوطني بناابلس. أما بالنسبة لي، فأننا لا نستطيع أن أحده بالدقة في أي سنة من سنوات عمري بدأت بالتعلم في المرحلة الإبتدائية، إذ لم يكن هناك اعتبار أساسي للسن في دخول المرحلة الإبتدائية. وما أذكره هو أنني بدأت الذهاب في سن مبكرة إلى "مدرسة الخان" القريبة من خان التجار، والتي كانت من أبرز وأوسع مدارس نابلس الإبتدائية في ذلك الوقت . وأنكر أديب مهيار مدير المدرسة.

كان التعليم في المدارس الحكومية مجانياً، ومناهج الدراسة عربية وتركية، وكان كاظم عاشور زميلي على مقعد الدراسة. وبالرغم من أنه كبرني بأربعة أعوام، إلا أننا كنا في صف واحد. واشتهر كاظم بالذكاء والفطنة، وكان يحصل دائمًا على ترتيب الأول في الصف، وكانت أليه بترتيب الثاني. كنا نحظى دائمًا بإشادة مدير ومعلمي المدرسة نظراً لاجتهادنا وخطانا الجميل، وأنذر أن دفترى خطينا كانا ينقلان بين المدارس كنموذج للخط الجميل.

أنهيت دراستي الإبتدائية التي كانت مناهجها باللغتين العربية والتركية وحصلت على شهادتها من درجة "علي الأعلى" عام ١٩١٣. وكانت وزميلي كاظم عاشور من أبرز تلاميذ المدارس الإبتدائية في المدينة من حيث الكفاية والإجتهاد والتفوق.

انتقلت لتابعة دراستي إلى المدرسة الرشدية الإعدادية التي أقيم بناؤها خارج أسوار

المدينة، مقابل المستشفى الوطني. وأنذر من المدارس التي بناها الأتراك أيضاً المدرسة الرشادية الشرقية نسبة إلى السلطان محمد رشاد، التي سميت لاحقاً بالمدرسة الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي. ووصلت هذه المدرسة فيما بعد إلى مرتبة متقدمة من حيث مستوى الكوادر العاملة فيها ومستواها التعليمي، واعتبرت من أهم المدارس في فلسطين. ومن هذه المدارس أيضاً المدرسة الرشادية الغربية التي سميت فيما بعد بالمدرسة الفاطمية. أما مدارس الإناث بصورة عامة فكانت في عهد الأتراك محدودة جداً. وأنذر من المعلمين كل من علاء الدين حلاوة وعادل تفاحة وبكر عبد الحق والشيخ حسني العبوة والشيخ محمد تفاحة، وقد واصلوا مهنة التدريس في عهد الانتداب البريطاني.

لم يدم جلوسنا على مقاعد الدراسة الإعدادية طويلاً. فكما ذكرت سابقاً، اندلعت الحرب وأغلقت المدارس أبوابها، وعملت مع أخي في دكان لنا لبيع التبغ والمhamar والقداحات والزبيب والدبس والطحينة. وكان الجنود الأتراك أهم رواد المحل وأفضل زبائنه، إذ تعودوا القوم إلى نابلس لشراء الدخان وأوراق لف السجائر المستوردة من الشام. وأعتقد الآن أنه لو لا إقبال الجنود على الشراء من دكاننا لما استطعنا الإستمرار فيها.

انتهت الحرب ودخل الإنجليز البلاد محظيين. وعلى الرغم من حلول فصل الصيف فقد قرروا فتح المدارس فوراً، فعادت إلى مدرستي الإعدادية. ومع الاحتلال البريطاني دخلت البلاد مرحلة جديدة من الخضوع لاستعمار أجنبي. ومع بداية الاحتلال حدثت تغيرات جذرية وهامة في مجال التعليم، حيث حلت المناهج المصرية محل المناهج التركية، وسميت الصفوف الإعدادية بالصفوف الثانوية. وتحولت المدرسة الرشادية الغربية إلى مدرسة لتعليم الإناث. وكانت في ذلك الوقت قد بلغت من العمر أربعة عشر عاماً، فنُقلت إلى المدرسة الصلاحية الثانوية، وأكملت فيها الصف الثالث الثانوي الذي كان الصف الوحيد من نوعه في فلسطين.

كان للمعلمين امتحانان، "الإمتحان الأدنى" وـ"الإمتحان الأعلى"، ونجحت في إقناع زميلي كاظم عاشور بمشاركة في تقديم طلب لدائرة المعارف للسماح لنا بتقديم الإمتحان الثاني مباشرة، دون تقديم "الإمتحان الأدنى". وأنذر أنتي أقيمت درساً مقرراً للصف الأول الثانوي بعنوان "صدأ الحديد". وقد نجحت في إلقاء الدرس العملي وتوضيح الموضوع وإدارة



الحصة بصورة متميزة، ولذلك تسلمت كتاباً من مفتش المعارف يفيد بأنه قد تم بـ "صورة استثنائية" قبولي للتقدم لفحص "الإمتحان الأعلى" ، وكذا تم لكااظم عاشر دون سوانا.

عن حياة صنوبر المهنية:

يقول عن تجربته في بئر السبع:

بعد نجاحي في صيف سنة ١٩٢٠ في الإمتحان المذكور، الذي أخفق فيه بعض المعلمين من الذين علموني، و كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري ، وردني كتاب من دائرة المعارف يشير بالموافقة على تعييني بوظيفة معلم في مدينة بئر السبع براتب شهري مقداره سبعة جنيهات، مضافاً إليها جنيهان ونصف الجنيه علاوة حرب لأن البلاد كانت لا تزال حينئذ خاضعة الحكم العسكري البريطاني. وكان الراتب يدفع بادىء الأمر بالجنيه المصري إلى أن أصبح يدفع فيما بعد بالجنيه الفلسطيني.

جبي لمارسة مهنة التدريس، وتوفي للمكانة الإجتماعية الرفيعة التي كان يكتسبها من يعمل في هذه المهنة، والراتب الشهري المرتفع الذي كنت أعتبره في ذلك الوقت غنيمة كبرى، كل هذه العوامل جعلتني لا أتردد لحظة واحدة في قبول الوظيفة وأرفض عرضاً قدمه لي أخي الذي انخرط في سلك الشرطة بعد وفاة والدي. فقد عرض أن يصحبني إلى الشام لاستكمال دراستي ويعمل هو هناك ليوفر لي المصاريف الازمة لدراستي في كلية الصيدلة.

كانت مدينة بئر السبع في ذلك الوقت مدينة صغيرة هادئة يتواسطها شارع واحد فقط ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة آلاف نسمة، معظمهم من المهاجرين القادمين من غزة والخليل. في هذه المدينة بدأت رحلتي مع مهنة التعليم في مدرسة ابتدائية كاملة بُنيت لتعليم أبناء شيوخ العرب في المنطقة. ضمت المدرسة قسماً داخلياً ضخماً وغرفاً للتدريب الصناعي، وكانت مقسمة إلى قسمين واحد للذكور وأخر للإناث. أما الهيئة التدريسية فتشكلت من سبعة معلمين.

لم يمض على عملي مدرساً لمدة الرياضيات في هذه المدرسة شهرًّا واحدًّا حتى جاء

كشف الرواتب الجديد ليضع حدًا لإقليمتي في بئر السبع. ذلك أنه مع قرار سلطات الاحتلال البريطاني القاضي بإلغاء الحكم العسكري القائم واستبدال حكم مدني به، جرت تعديلات في سلم الدرجات الوظيفية والرواتب. وكانت النتيجة أن ألغيت عادة الحرب، ومنح الحاصلون على شهادة "الإمتحان الأعلى" زيادة في الراتب الأساسي. أصبح راتبي بعد التعديل الثاني عشر جنيهًا وثمانين قرشاً. وأصبح راتب مدير المدرسة، أحد عشر جنيهًا وثمانين قرشاً. ولما كنت أسبق مديرًا درجة وأزيد عنه راتباً، لأنه لم يكن حاصلاً على شهادة "الإمتحان الأعلى"، فقد تقرر في آخر السنة المدرسية نقله إلى مدينة غزة.

ومن الإجراءات والتغييرات والتعديلات التي يجدر ذكرها بعد قرار استبدال الحكم المدني بالحكم العسكري عام ١٩٢٠ تعين "مستر بومن" بزيه المدني مديرًا للمعارف في فلسطين بدلاً من "مستر ليف" الذي كان يرتدي الزي العسكري. أما "مستر بيلي" الحاكم العسكري لمدينة بئر السبع وجميع مديرى الدوائر المختلفة من الضباط الإنجليز فقد استبدلوا ملابسهم المدنية بالملابس العسكرية. وسرعان ما كان جميع هؤلاء يعودون للزي العسكري فور اندلاع اضطرابات سياسية في البلاد.

أدارت الحكومة البريطانية مدارس فلسطين بوساطة دائرة معارف عامة مركزها القدس يرأسها بريطاني. واستقدمت في بادئ الأمر موظفين مصريين للعمل في هذه الدائرة، ثم استبدلت بهم موظفين محليين. وأنذر من الموظفين العرب أحمد طوقان وأحمد سامح الخالدي وحسن الكرمي وإسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني والشيخ حسام جار الله ووصفي العنتاوي وأولغا وهبة وأحمد القاسم وحيدر حلاوة. أما مساعد مدير الدائرة فكان لبنانياً يدعى جورج انطونيوس، حل محله لبناني آخر يدعى جبرائيل كاتول. أما بالنسبة لدائرة معارف البلاد فقسمت إلى أربع مناطق تعليمية تتوافق مع تقسيمات الألوية الإدارية، هي القدس والسامرة والجليل ويافا، وعيّن على رأس كل منطقة مفتش لوائي.

في فرزه:

في مدرسة غزة الثانوية بدأت عملى الجديد مساعداً لمدير المدرسة كاظم عاشور.

وتميزت علاقتي معه بالوفاق التام والثقة المتبادلة والتطابق بالأراء ووجهات النظر. كيف لا، وهو رفيق طفولتي وصباي وزميل دراستي؟

كانت مدينة غزة أكثر تمدنا من بئر السبع، وتميزت الحياة الإقتصادية فيها بانخفاض أسعار المواد الغذائية والسلع الأخرى. ولما كان التشابه كبيراً بينها وبين مدينة نابلس من حيث التركيب العائلي والسكاني والتقاليد الاجتماعية، فقد استدعيت أخي وأخي للإقامة معه. وفي غزة عمل أخي في إدارة شركة صنوبر أخوان لاستيراد البضائع من مصر وبيعها لتجار غزة، ووفرت هذه الشركة لنا وضعاً مالياً جيداً.

أذكر من المجلات التي كانت تصدر في غزة مجلة "المقطف" العلمية التي رأس تحريرها الدكتور يعقوب صروف، ومجلة "الهلال" التي رأس تحريرها جورجي زيدان. وكانت هاتان المجلتان ترسلان للمشتركيين هدايا سنوية. ومن الهدايا التي تلقيتها من مجلة "المقطف" كتاب بعنوان "بساط علم الفلك". أذكر أنني بعد قراءة هذا الكتاب كتبت إلى رئيس التحرير الدكتور صروف رسالة أوضح فيها أنني توقفت عند ثلاثة أخطاء وردت في الكتاب. وقد شرحت وجوه الخطأ وبيّنت صحتها. وكان أحدهما أن من الآثار التي يخلفها فيضان نهر النيل تلاشي نقاط حدود الأراضي، فتصبح الأراضي الزراعية وكأنها قطعة واحدة، وتتبس على الفلاحين حدود أراضيهم. ولحل هذا الإشكال رأى المؤلف أن المصريين لا بد أنهم كانوا يعرفون علم حساب المثلثات، ليتمكنوا من معرفة أراضيهم بعد الفيضان. وقد أوضحت في رسالتي أن المصريين يستطيعون حل هذا الإشكال أن يعمدوا إلى استعمال أدوات هندسية علمية تعفيهم من ضرورة معرفة علم حساب المثلثات.

في العدد التالي من المجلة أورد رئيس التحرير نص رسالتي معلقاً بأنه يوافق على ما جاء في رسالة "الخواجا" إبراهيم صنوبر من غزة من تصحيح للأخطاء العلمية. ولكن فيما يتعلق بالإشكال الناجم عن فيضان النيل علق بأنه يجد علم حساب المثلثات أكثر دقة من استعمال الأدوات الهندسية العلمية مهما بلغت دقتها.

أما تجربتي مع مجلة "الهلال" فكانت مختلفة. ففي أحد اعدادها قرأت مقالاً رياضياً



لأستاذ جامعي يدعى سليم حداد، له مؤلفات عدّة لا سيما في التجارة والإقتصاد. طرح الكاتب في مقاله حل رياضياً لمسألة تتعلق بمساحة دائرة أفق الإنسان الواقف في سهل منبسط، ومساحة الدائرة عند الإرتفاعات. وكان هذا الحل خطأً محضاً ومناقضاً للحلول الرياضية. ولذلك حررت رسالة إلى المجلة أطّر فيها الحل الرياضي الصحيح لكيفية ايجاد مساحة دائرة أفق الإنسان في سهل منبسط وفي أي إرتفاع كان.

أهملت رسالتني لأكثر من شهرين، إلى أن نشر في المجلة بعد ذلك تصحيح للحل الرياضي للمسألة مطابق للحل الذي كنت أرسلته سابقاً، ولكن دون أن يتم التطرق إلى رسالتني. بل نسب التصحيح إلى سليم حداد نفسه، مما يدل على اعترافه بخطئه الفاضح الذي كان من الممكن أن يؤثر على سمعته الرياضية في العالم العربي كله.

في لقاء جمعني فيما بعد مع فؤاد صروف (ابن يعقوب صروف ومساعد رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت) تعمدت أن أثير هذا الموضوع لأبين له الفرق بين "المقطف" و"الهلال" وبين موقف والده وموقف جرجي زيدان.

أما المجلة الثالثة التي ثابتت على قرأتها في تلك الفترة فكانت مجلة علمية لا يحضرني اسمها الآن. وكانت هذه المجلة تطرح على قرائها في كل عدد مسألة رياضية صعبة تطلب منهم حلها. كنت أحل المسائل وأرسل الحل بتواقيع مستعار باسم "خبّاب" وفي أحد أعداد المجلة وردت ملاحظة تقول : قام بحل مسألة عدد المجلة السابق شخص واحد دون سواه يضن علينا باسمه الكريم ويوقع باسم "خبّاب".

بئر السبع من جديد :

بعد أن قضيت ثلاث سنوات في مدينة غزة عدت إلى بئر السبع التي بدأت فيها حياتي العملية، ولكن هذه المرة مدير المدرسة وليس معلماً للرياضيات. وكانت المدرسة في بئر السبع تضم طابقين، خصص العلوى لتعليم الإناث والسفلى لتعليم الذكور كما ذكرت سابقاً.

كثيراً ما كانت التلميذات يتمشين في حديقة المدرسة، ومن بينهن زلفى شعبان مصطفى بسيسو. كانت زلفى مجتهدة في دروسها، ودرجتها الأولى في صفها دائمًا، تتنقّب غطاء الوجه، تنتمي إلى عائلة كريمة معروفة من عائلات الجنوب الفلسطيني، غزاوية الأصل، انتقلت عائلتها لتسكن في بئر السبع. وما كنت قررت الزواج وقد بلغت الحادية والعشرين، اختارت زلفى لتكون شريكة حياتي. وقد تم زفافنا وكانت الحفلة بسيطة اقتصرت على أخي وأختي وأسرة العروس. وأود أن أؤكد هنا على أنني لم أتقدم إلى خطبة زلفى إلا بعد تمكنني من رؤية وجهها. أما البيت الذي كنا نسكنه فكانت أجرته السنوية تسعه جنيهات.

الرملة:

في عام ١٩٢٥ نقلت من مدرسة بئر السبع بعد أن عملت فيها عامين إلى مدينة الرملة. وقبل أن أتسلم عملِي الجديد في مدينة الرملة، اصطحبت زوجتي إلى مصر في رحلة لقضاء شهر العسل.

ضمت المدرسة الثانوية في مدينة الرملة صفا ثانويًا واحدًا بعد المرحلة الإبتدائية. وأثناء إدارتي لها أضيف إليها الصف الثاني الثانوي. وأنظر أن جبرائيل كاتول، مفتش الطبيعتيات والرياضيات في دائرة المعارف العامة، فاجأني بزيارة تفتيشية في ذات يوم دون إعلام مسبق، ودخل الصف الثاني الثانوي الذي كنت أعلم فيه الطالب مادة الميكانيكا. وعندما قرأ الأسئلة المكتوبة على اللوح الأسود كامتحان قصير، دهش لصعوبتها وللح لي بأن هذه الأسئلة من مستوى امتحان شهادة الإجتياز إلى التعليم العالي. أخبرته أن مدة الامتحان هي عشر دقائق فقط، وعما قليل سيرى النتائج. وانتهى الامتحان، جمعت الأوراق وطلبت منه تصحيحها بنفسه. ودهش كاتول للمرة الثانية عندما وجد جميع علامات الطالب لا تتقصّ عن خمسة وسبعين من مئة. مما كان منه إلا أن دون ملاحظات في دفتره الصغير، وقال لي: «مدرسة أنت مديرها ليست بحاجة إلى مفتش يأتي لراقبتها». وغادر المدرسة، ولا أذكر أنه عاد إليها أثناء إدارتي لها في زيارة تفتيشية أخرى.

الرملة مدينة هادئة وطقسها دفيء في فصل الشتاء، كانت تكتظ بالزوار القادمين من



مدن فلسطين خاصة في موسم النبي صالح ومعهم أعلامهم. و كنت أشاهد أهالي نابلس وهم يصلون إليها حاملين أعلامهم، فرحين بهذا الموسم الديني. وفي إحدى السنوات طلب مني أخي أن أدعو زائري نابلس لتناول طعام الغداء، ولكني لم أتمكن من القيام بذلك لأن عددهم كان يقارب الثلاثمائة شخص.

تميزت الحياة في مدينة الرملة في ذلك الوقت بالبساطة. وكانت مقاهيها ملتقى الموظفين بعد انتهاء دوامهم اليومي، تجمعهم طاولة النرد. ومع احتساء الشاي والقهوة كانت تنطلق الألسن، فمن الحديث عن الهموم اليومية إلى المشاكل الشخصية وقضايا المدينة الإجتماعية والإقتصادية. ولم يكن سكان الرملة يختلفون عن بقية سكان مدن فلسطين في اتجاهاتهم السياسية، فمنهم من كان "المعارض" ومنهم "المجلس". أما الخلافات بين مؤيدي الطرفين فلم تكن بارزة في المدينة إلى حد يجعلها تطفو على السطح بشكل يُؤرق النسيج المجتمعي لأهل المدينة. وكان التنافس على رئاسة البلدية مثاراً لحماسة شديدة من الطرفين. وأنذك من رؤساء بلدية الرملة الشيخ مصطفى الخيري ويتمنى إلى "المعارضة"، وعلى علاء الدين وكان "مجلسياً".

أثناء عملي في مدينة الرملة أخبرني مفتش المعارف أن الإنجليز يفرضون رقابة على تحركاتي إلى درجة ملاحقي أثناء سفري إلى مدينة غزة للإشتراك في احتفال وطني أقيم في منزل الحاج سعيد الشوا. وقد أخبرني هذا المفتش أيضاً بأنني أصبحت معروفاً لدى الإنجليز كرئيس للحركة السياسية في اللد والرملة. وأرجح هنا أن هذا الإنطباع الذي تكون عنى لدى مدير بوليس الرملة المصري الجنسي كان نتيجة اشتراك طلاب مدرستي في المظاهرات التي وقعت أثناء ثورة ١٩٢٩.

ويحضرني هنا أن مدير البوليس المذكور نقل من الرملة إلى حيفا، وهناك لاحقاً الثوار وحاصروه داخل منجرة في "هدار الكرمل" حيث قتل أحد الثوار بإطلاق عدة رصاصات على رأسه. والجدير بالتنوية أن منطقة "هدار الكرمل" كانت تعتبر آنذاك منطقة خطرة وغير آمنة وذلك بسبب المضايقات التي كان يتعرض لها العرب من اليهود. وكان وجود أي عربي في تلك المنطقة يعرضه للمصاعب إبان الإضطرابات المحلية.

تمتعت بحياة رغيدة في مدينة الرملة لأن راتبي الشهري كان مرتفعاً. فقد بلغ خمسة وعشرين جنيهاً بالشهر، وكان يعادل راتب القائم مقام في ذلك الوقت.

دفعني حبي للمعرفة والإطلاع إلى تركيز اهتمامي بأولادي، والحرص على أن أنمّي في نفوسهم حب العلم والتعلم، وأن ينالوا قسطاً وفييراً من الثقافة، التي هي بلا ريب طريقهم ومطيتهم إلى الجد والنجاح. كما كنت حريصاً على تعويذهم التأقلم مع ظروف الحياة المختلفة. فأطلب منهم الذهاب إلى مدارسهم مشياً على الأقدام. وأعرضهم أحياناً لطر الشتاء ليسقط الماء على رفوسهم كما يسقط على رفوس القراء من طلاب مدارسهم. ولم يكن اهتمامي البالغ بواجبات العمل يقف عائقاً أمام مراقبتي سلوكياتهم أو تربيتهم على أساس مبادئ الأدب والأخلاق.

رزقت سبعة أولاد، حصل أربعة منهم على شهادات جامعية وكان أول أبنائي عصام الذي ولد عام ١٩٢٦، وأنهى دراسته الثانوية التجارية في مدرسة العامرية في يافا، وتوظف في دائرة ضريبة الدخل في القدس. ثم ذهب إلى السعودية وعمل هناك في وزارة الدفاع، وكان من مرافق الملك سعود، يرافقه في كل سفراته. وقد استوطن عصام في السعودية وتجنس بجنسيتها هو وأبناؤه.

أما ابنتي "عصمت" التي ولدت عام ١٩٢٧ فقد يسجل التاريخ الفلسطيني أنها كانت أول الطبيبات الفلسطينيات، فقد حصلت على شهادة الطب في أوائل الخمسينيات من جامعة لندن ثم نالت شهادة التخصص من هذه الجامعة في أمراض النساء والتوليد. وأنذر أنها بعد أن حصلت على شهادة الإجتياز إلى التعليم العالي التحقت بدار المعلمات ولم يكن لديها ميل للعمل في سلك التعليم. وقد صارت حبي برغبتها في أن تصبح طبيبة، ولم يكن مألوفاً في بلادنا أن تدرس فتاة الطب، فذهبت إلى مدير المعارف وأطلعته على رغبة ابنتي في دراسة الطب، التي تستلزم دراسة من نوع خاص يجرى فيها التركيز على المواد العلمية (فيزياء، كيمياء، علوم)، وهذه المواد لا تدرس في دار المعلمات، وكذلك طلبت منه أن يتيح لها مكاناً في المدرسة الرشيدية، وهي مدرسة للذكور فقط، وقد فوجيء بالطلب واعتذر عن

تنفيذه كي لا يكون هناك تعليم مختلط، واقتراح أن تبقى في دار المعلمات على أن يكلف بعض المعلمين في المدرسة الرشيدية بأن يدرسواها الواد، المملوكة، ثم ترسل إلى إنجلترا لدراسة الطب. وقد فعل. وذهبت عصمت إلى إنجلترا، وتحقت بالجامعة وذلك بمنحة كانت قيمتها (٤٠٠) جنيه في السنة. وعلى أثر نهاية الإنتداب عام ١٩٤٨، أبلغت وزارة المستعمرات أصحاب المنح بأنها سوف تتوقف عن الإنفاق عليهم، فأرسلت إلى ابنتي أن تذهب هي وأربعة طلاب فلسطينيين آخرين إلى وزير المستعمرات البريطاني، وتطلعه على العقود الموقعة مع المندوب السامي في فلسطين، وقد فعلت ذلك. ووافق الوزير على تنفيذ شروط العقد كاملة. وبعد تخرج ابنتي في جامعة لندن عينت طبيبة في المستشفى الوطني في نابلس.

كان الزلزال عام ١٩٢٧ من الأحداث الهامة التي وقعت أثناء عملي في مدرسة الرملة خلال الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٢. وقد وقع الزلزال الذي هزَّ فلسطين أثناء وجودي في المدرسة بعد الساعة الثالثة مساءً. كان الدوام المدرسي قد انتهى، وكانت أقوم بإنهاء بعض الأعمال وأرافق أحد الصفوف الذي يتأخر دوامه إلى ما بعد الساعة الثالثة. اهتزت المدرسة وهدم جزء من المبني القديم الذي شكل أحد مباني المدرسة الثلاثة. طلبت من الطلاب الموجودين في الطابق الثاني النزول والانتشار في ساحة المدرسة. وفي طريق عودتي إلى البيت وجدت أخي غارقاً في البكاء بسبب ما رأه من هدم في بناء المدرسة وتصوره أنني قد أكون من ضحايا الزلزال، وأنني قد أصبحت في عداد الأموات.

وشهد عام ١٩٢٧ حدثاً هاماً آخر هو تغيير النقد المتداول في فلسطين من الجنيه المصري إلى الجنيه الفلسطيني. وعندما استفسرت من "مستربونن"، مدير المعارف، عن سر هذا التحول أجبني بأن مصلحة حكومة فلسطين هي في استعمال النقد الورقي والمتاجرة ببطائه الذهبي والفضي في بلاد (كمونج كونج) مثلاً التي لا تتعامل إلا بالذهب والفضة دون غيرهما، وذلك عدا ما تستفيده الحكومة من جراء فقدان النقد الورقي بحرق أو إتلاف أو غيره.

في طبريا:

كان البناء الذي يحتضن المدرسة في مدينة طبريا يعتبر من أبرز الأبنية المدرسية في فلسطين قاطبة. أما مقاعد التدريس في هذه المدرسة فجمعت الطلاب العرب مع اليهود، وهي المدرسة الحكومية الوحيدة التي كان يقصدها الطلاب اليهود. لذا فإن كتاب النقل الذي وصلني من دائرة المعارف كان يتميز بلهجة خاصة تبرز الوضع الحساس الذي سيواجهه نتائج اختياري كمدير لهذه المدرسة. وطلب مني كتاب النقل انتهاج سياسة حكيمة وقدرة على تسخير الأمور، تاركا لي حرية اختيار الأسلوب الإداري الذي أراه مناسباً.

بدأت عملي الجديد في طبريا عام ١٩٣٢. وقامت أثناء إدارتي لدرستها بوضع شكل لأسلوب نظام إداري لمديري المدارس. وقبول هذا النظام بترحيب كبير في دائرة المعارف لما تميز به من مجموعة أحكام متكاملة وموضوعة بأسلوب جيد وتنظيم دقيق. ونظراً لذلك قامت دائرة بعملي على جميع مديري مدارس فلسطين.

كان التعليم في المدن الفلسطينية الكبيرة كافة يتوقف عند نهاية الصف الثاني الثانوي. أما الطالب الذي ينهي هذه المرحلة التعليمية وفي نفسه طموح وشوق إلى المزيد من التحصيل العلمي، ولم يحصل على نتائج متقدمة جداً، فكان يجد نفسه أمام طريق صعب وشبه مغلق. فتعليمات دائرة المعارف اشترطت لقبول الطالب في المدرسة الرشيدية في القدس حصوله على الترتيب الأول أو الثاني في صفه الثانوي الثاني.

كانت المدرسة الرشيدية في القدس هي المدرسة الحكومية الوحيدة في فلسطين التي تؤهل خريجيها للتقدم لامتحان شهادة "الاجتياز" إلى التعليم العالي الفلسطيني، والذي بدأ العمل به عام ١٩٢٧ تحت إشراف مجلس التعليم العالي الفلسطيني، الذي ضم هيئة مكونة من كبار رجال التعليم العرب واليهود، يرأسهم مدير المعارف البريطاني. وبعد حصول الطالب على شهادة اجتياز هذا الامتحان كان يستطيع الالتحاق بالكلية العربية الموجودة أيضاً في القدس والمتخصصة بتدريس أساليب التعليم وتأهيل المعلمين. والجدير بالذكر أن الجامعة الأمريكية في بيروت كانت تقبل من يحوز على شهادة امتحان "الاجتياز" في السنة الثانية من

كلياتها المختلفة. وأنذر أن عدد المتقدمين لهذا الامتحان بلغ عام ١٩٢٧ سبعة وعشرين طالبا من أنحاء فلسطين كافة .

ولتوضيح مفهوم هذا الامتحان وإلقاء المزيد من الضوء على تسلسل نظام التعليم الذي كان سائدا في فلسطين لا بد من التعرف على مراحل التعليم المختلفة. كان نظام التعليم ينقسم إلى مرحلتين. وكان هدف دائرة المعارف تثقيف الطالب ثقافة ابتدائية تزيل أميته، ثم تأتي المرحلة الثانوية التي ينال الطالب في نهايتها شهادة الدراسة الثانوية. وإلى جانب المرحلتين، اعتمدت دائرة المعارف ثلاثة مناهج في فلسطين. الأول، منهج يطبق في القرى الصغيرة، وهو عبارة عن منهج متكملا مدته أربع سنوات، إهتم بمعالجة مشكلة ابن القرية الصغيرة الذي كان والده يصطحبه معه في سن مبكرة للعمل في الأرض . أما المنهج الثاني فكان يستهدف القرى الأكبر مساحة، والأكثر سكانا، والأحسن حالا. وحظيت المدن بمنهج ثالث أغزر بمواده من المنهجين السابقين. وعلى سبيل المثال، كانت اللغة الإنجليزية تدرس في المدن والقرى الكبيرة فقط، أما تلميذ القرية الصغيرة فيدرس اللغة العربية والحساب والدين والتاريخ بصورة مختلفة . وإذا ما سُنحت له الفرصة لمتابعة دراسته في المدينة كان يدرس اللغة الإنجليزية والمواد الأخرى.

كانت الدراسة في الكلية العربية تمتد إلى سنتين يتقدم الطالب بعدهما لامتحان "المتوسط"، يحصل الناجح فيه على شهادة تعادل السنة الجامعية الثانية. وأنذر أن هذا الامتحان كان من الصعوبة بحيث لا يتقدم إليه سوى صفوه طلاب فلسطين من منتسبي الكلية العربية. وأنذر أيضا أن الجامعة الأمريكية في بيروت كانت تقبل من اجتاز هذا الامتحان بالسنة الثالثة فيها .

قام مجلس التعليم العالي الفلسطيني لاحقا بمنح شهادة أخرى اعتبرت جامعية، وسميت شهادة "الدبلوم". ونظرا لعدم وجود أي معهد في فلسطين ييسر إمكانية تعليم وتهيئة الطالب للتقدم لامتحان هذه الشهادة، فقد كان الطلاب يعتمدون لتقديمه على دراستهم الخاصة. وفي سنة ١٩٣٣ صدر قانون المعارف الذي ينص في مادته السابعة والعشرين على ما يلي:- "يجوز لمدير المعارف في بعض ظروف استثنائية أن يسجل أي شخص كمعلم حامل

شهادة التدريس العالي أو الثانوية بلا امتحان إذا كان قبل اليوم الحادي والثلاثين من شهر آب سنة ١٩٢٢ قد عُلِّم في صفوف ثانوية إما كافة أوقاته أو أغلبها مدة لا تقل عن ثلاثة سنوات دراسية أو كان حائزًا على درجة تخصص من جامعة لها مكانة عالية، رغمما ورد في المادة (٢٦) من هذا النظام . وقد انطبقت على شروط هذه المادة مع أربعة آخرين غيري.

كانت زيارة "المستر فرل" من الأحداث التي ما زلت أذكرها خلال فترة إدارتي لمدرسة طبريا . وقد عمل المذكور مساعدًا لمدير دائرة المعارف لفترة طويلة، وكان يعرف اللغات العربية والألمانية والتركية واللاتينية، إلى جانب اللغة الإنجليزية. وكانت زيارة "فرل" للمدرسة بهدف التفتيش. لاحظت أنه دهش عندما أجاب أحد طلاب السابع الإبتدائي عن جميع أسئلته في مادة التاريخ، معيناً تواريخ المعارك بدقة فائقة. وخرج "فرل" من الصف مسروراً بعد أن دون في دفتره عدة ملاحظات من ضمنها اسم هذا الطالب وهو "فخري" .

بعد مدة وصلني من دائرة المعارف الكتاب السنوي العادي الذي يطلب ترشيح الطالب الأول من الصف السابع الإبتدائي لكي يلتحق بكلية العربية .

لم يكن الطالب فخري هو الذي رشحه، فقد وقع اختياري على طالب آخر اسمه "محمد عورتاني" ، وكان عمره أقل من معدل أعمار طلاب صفه بعام كامل. أما ترتيبه في صفه فقد قفز من الرابع إلى الأول وذلك بموجب النظام الذي يرفع الطالب الأصغر سنا في صفه بمعدل درجة واحدة إلى الأعلى عن نقص كل ثلاثة أشهر في عمره عن معدل أعمار الطلاب .

عندما وصل الإسم المرشح إلى دائرة المعارف لم يكن في حسابات وتوقعات فرل إلا يكون الطالب فخري هو المرشح، فدهش وأرسل يستفسر عن السبب. فأجبته بأن الترشيح والإختيار لا يتوقفان كما يعلم على مادة التاريخ وحدتها التي يمثل فيها الطالب فخري المركز الأول .

ومن الأحداث الأخرى التي وقعت أثناء عملي في طبريا أنتي استدعيت للدلاء بشهادة



أمام محكمة الصلح في دعوى أقامها شرطي يهودي على أحد سكان المدينة ويدعى "أحمد منصور"، وذلك أثر مشادة كلامية وقعت بينهما. ولما كنت الشاهد الرئيسي والوحيد في القضية، فقد أدليت بشهادتي بما أملأه عليّ ضميري وبدون تحيز. وقد جاءت هذه الشهادة لصالح الشرطي اليهودي الذي خرج من المحكمة وقبل يدي وشكري وأخبرني أنه لم يكن يتوقع مني هذا الموقف لاعتقاده بأن الدين الإسلامي يأمر المسلم بأن يشهد دائمًا مع أخيه المسلم ضد غير المسلم. فأوضحت له أن اعتقاده هذا خطأ لأن قائم على فهم مغلوط لحقيقة الأمر، وهو فهم بعيد كل البعد عن مبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

طبريا مدينة جميلة تضم أبناء الديانات الثلاث، ولم تكن العلاقات بين سكانها سيئة بل كانت تميل غالباً إلى التعايش في هدوء. وكانت الطائفة البارزة اجتماعياً في المدينة هي طائفة اليهود. أما العرب فكان معظمهم يعمل في صيد الأسماك ولم يكن وضعهم الاقتصادي مستقراً، وهم في عمومهم لم ينالوا إلا قسطاً متواضعاً من الثقافة والمعرفة.

كان الشيخ طاهر الطبرى المجلسى الاتجاه، ووالد الشيخ المعروف محمد وجدى الطبرى يحظى بأهم منصب إسلامي في المدينة، وهو قاضي طبرياً. وكانت على علاقة وطيدة بهذا الشيخ الذي دعاني ذات يوم إلى مأدبة غداء كبرى أقيمت تكريماً للحاج أمين الحسيني.

الى حيفا:

كان لواء الجليل يشمل قائم مقاميات حيفا وعكا وصفد وبيسان والناصرة وطبرياً. وكانت مدينة حيفا هي محطة الثانية في هذا اللواء، حيث نقلت إليها عام ١٩٣٦ للاكون مساعداً لافتتاح معارف لواء الجليل.

شهدت ثورة عام ١٩٣٦ أحداثاً كثيرة. أذكر منها قصة المعلم الشيخ أحمد حسن في قرية "شعب" من قضاء عكا الذي حاول جنود الإنجليز إذلاله بإرغامه على تفريغ حمولة شاحنة، مما أغضب أهالي قريته فاشتبكوا في صدام مع العساكر. وبعد هذا الحادث تحول



الشيخ المعلم إلى ثانر، فاشترى بندقية وخرج مع فريق من رجال القرية إلى الجبال المجاورة، وشكل مجموعة ثورية قامت بعمليات قتالية ضد المحتل الإنجليزي.

ودون التاريخ فيما بعد، اسم هذا الشيخ كزعيم من زعماء ثورة ١٩٣٦. والجدير بالذكر أنه تمكن مع فصيله الثوري من احتلال مدينة الناصرة لبعض ساعات. وقد باع بالفشل كل محاولات السلطات للقبض عليه. وكان الذين يعرفون مخبأه يدركون أن ثمن الإدلاء بمعلومات عنه لا يتجاوز قرشاً ونصف القرش هو ثمن طلقة محسنة في بندقية أحد الثوار.

وهناك حادثة أخرى، فبينما كنت في زيارة مجاملة لحاكم عكا البريطاني بمناسبة أحد الأعياد، سمعنا أذيز الرصاص بالقرب من المكان. وعلمنا أن الدكتور أنور الشقيري الأخ الأصغر لأحمد الشقيري الذي كان يسكن في بيت مجاور لمقر الحاكم، قد أردي قتيلاً برصاص مجهول. ورأيت ملامح الرعب ترتسم على وجه الحاكم الذي وضع مسدسه على الفور أمامه على المكتب تحسباً من هجوم محتمل يشنّه الثوار.

لم أسكن مدينة حيفا رغم أنها مركز عملِي، وذلك لسببين، أولهما ارتفاع أجرة المنازل فيها، وثانيهما الجو الاجتماعي الغريب للمدينة. ولذلك فضلت السكن في مدينة عكا لأن أجرة المنزل هناك لم تكن تتجاوز الثلاثين جنيهاً سنوياً. وكانت المواصلات بين المدينتين بوساطة القطار الذي يحملنا صباحاً ويعيدنا مساءً بكلفة زهيدة لا تزيد على نصف جنيه شهرياً. أما الأجرة في السيارات فكانت ضعف هذا المبلغ. وكانت أسعار السلع في عكا معقولة، فعشرة قروش فقط كانت كافية لشراء كيلو غرام من اللحم، وأصناف مختلفة من الخضار. وكانت الحياة بصورة عامة بسيطة جداً، فأهل المدينة يتداولون المودة والتعاون. وأنذر أنهم أجروا دراسة إحصائية عن الفقراء في المدينة، تأسست على أثرها جمعية أطلق عليها إسم "جماعة الإحسان" كان هدفها جمع التبرعات النقدية من العائلات الموسرة لتوزيعها على الفقراء والمحاجين، وقد نجحت هذه الجمعية، وحققت أهدافها، وحافظت على استمرارها نتيجة استخدامها بطاقات تبرعات دورية منظمة أعدت خصيصاً لهذه الغاية. وانعدم التسول كلية ولم يبق فيها محتاج إلاً ويصله من "جماعة الإحسان" ما يكفيه وعائده

اقتنت بفكرة "جماعة الإحسان" اقتناعاً كبيراً، وبقيت منقوشة في ذاكرتي حتى عدت إلى نابلس، فطرحتها في حفل تأبين المرحوم "خليل طوقان" وشرحـت للحضور تجربة عكا في هذا المجال. واقتـرحت تأسيـس جمـاعة برـإحسـان في نـابلـس تـسـاعد العـائـلات الفـقـيرـة وجـمـيع الطـلـاب الفـقـراء المـتفـوقـين لـنـفـقـات الـدـرـاسـة الـجـامـعـية. وـتـأسـست فـعلاً في نـابلـس "ـجـمـاعة البرـالـخـيرـيةـ" الـتـي قـامـت بـتـغـطـية وـاسـعـة في مـجـال مـسـاعـدة الطـلـاب الفـقـراء، وـقـضـت على التـسـول فيـ المـديـنـة لـفـتـرـة ما. وـكـانـت نـابلـس الـبـلـدة الـوـحـيدـة فيـ فـلـسـطـين الـمـتـمـيـزة فيـ هـذـا المـجـال، وـلـا تـزال هـذـه الجـمـعـية تـعـمـلـ حتىـ يـوـمـنـا هـذـا مـعـتـمـدـةـ فيـ مـيزـانـيـتهاـ عـلـى تـبرـعـاتـ الـمـؤـسـسـاتـ وـالـشـرـكـاتـ وـالـأـفـرـادـ منـ الـخـيـرـينـ فيـ المـديـنـةـ. وـكـانـ الطـالـبـ يـعـدـ الـمـلـبغـ الـذـي اـقـترـضـهـ مـنـ الـجـمـعـيةـ لـدـرـاستـهـ الـجـامـعـيةـ تـدـريـجيـاـ لـيـعـطـيـ إـلـىـ غـيرـهـ مـنـ الطـلـابـ الـمـاـئـيـنـ.

أثناء سكني في عكا استيقظت ذات ليلة على صوت طرق على باب منزلي في منتصف الليل! فتحـت بـابـ المـنـزـلـ فـإـذـا حـسـنـي خـلـيـفـةـ رـئـيـسـ بـلـدـيـةـ عـكاـ يـدـخـلـ ثـمـ يـجـلسـ عـلـىـ أـحـدـ الـمـقـاعـدـ، بـيـنـماـ كـانـتـ الـحـيـرـةـ الـمـزـوـجـةـ بـالـاضـطـرـابـ وـالـتوـتـرـ بـاـدـيـةـ بـوـضـوـحـ عـلـىـ مـلـامـحـهـ. اـسـتـفـسـرـتـ عـنـ سـبـبـ حـضـورـهـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ السـاعـةـ الـمـتأـخـرـةـ فـأـجـابـ أـنـهـ تـعـمـدـ زـيـارـتـيـ لـيـلاـ تـحـسـبـاـ مـنـ أـنـ يـرـاهـ أـحـدـ. وـأـنـهـ جـاءـ لـيـسـطـلـعـ رـأـيـيـ فـيـ مـوـضـوـعـ مـهـمـ وـحـسـاسـ وـخـطـيرـ، ذـكـرـ لـأـنـهـ وـاقـعـ فـيـ مـاـزـقـ لـأـحـدـ. يـحـسـدـ عـلـيـهـ، وـهـوـ فـيـ حـيـرـةـ مـنـ أـمـرـهـ. فـقـدـ أـبـلـغـهـ حـاـكـمـ الـلـوـاءـ، أـنـ الـحـكـوـمـ الـبـرـيـطـانـيـ قـرـرـتـ مـنـحـةـ "ـوـسـامـ الـإـمـبـراـطـورـيـةـ". وـجـاءـ هـذـاـ الـوـسـامـ فـيـ وـقـتـ غـيرـ مـنـاسـبـ، فـالـشـارـعـ الـفـلـسـطـينـيـ مشـحـونـ بـالـثـورـةـ، وـالـجـوـ الـعـامـ تـسـودـهـ أـقـصـىـ درـجـاتـ التـوـتـرـ ضـدـ الـاحـتـلـالـ الـنـجـلـيـزـيـ، وـحـسـنـيـ خـلـيـفـهـ رـئـيـسـ بـلـدـيـةـ عـكاـ يـمـنـعـ فـيـ هـذـهـ الـظـرـوفـ وـسـامـ الـإـمـبـراـطـورـيـةـ!!ـ فـاقـتـرـحتـ عـلـيـهـ أـنـ يـطـلـبـ مـقـاـبـلـةـ حـاـكـمـ الـلـوـاءـ وـيـشـكـرـهـ كـمـاـ يـشـكـرـ جـلـالـةـ الـمـلـكـ وـحـكـوـمـتـهـ عـلـىـ هـذـهـ الثـقـةـ الـكـبـيرـةـ، وـيـخـبـرـهـ أـنـهـ لـأـ يـمـلـكـ إـلـاـ أـنـ يـعـتـذـرـ عـنـ قـبـولـهـ الـوـسـامـ وـذـكـرـ لـأـنـ قـبـولـهـ لـنـ يـخـدـمـ الـمـصـلـحةـ الـعـامـةـ، وـسـوـفـ يـثـيرـ شـكـوكـ الـثـوـارـ فـيـهـ، الـأـمـرـ الـذـيـ سـيـحـدـ مـنـ مـزاـوـلـتـهـ لـنـشـاطـاتـهـ كـرـئـيـسـ لـبـلـدـيـةـ. أـخـذـ حـسـنـيـ خـلـيـفـهـ بـنـصـيـحـتـيـ الـتـيـ أـخـرـجـتـهـ مـنـ الـوـضـعـ الـمـحـرـجـ الـذـيـ كـانـ سـيـجـدـ نـفـسـهـ فـيـهـ لـوـ تـمـتـ عـمـلـيـةـ مـنـحـهـ الـوـسـامـ الـبـرـيـطـانـيـ.

كانت الفترة الممتدة بين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٠، والتي عملت فيها في مدينة حifa، فترة صعبة جداً. فاندلاع الحرب العالمية الثانية جعلت ميناء حifa ومصفاة البترول فيها هدفين للطائرات الألمانية والإيطالية المغيرة. حاولت مارانا إقناع رئيسي مفتش المعارف بالإنتقال إلى الناصرة باعتبارها مركزاً متوسطاً في اللواء، وذلك للتخلص من حifa ومن نيران القنابل الألمانية والإيطالية. ولكن محاولاتي باعت بالفشل في الذهاب إلى الناصرة، إلا أنها أثمرت في نقلني إلى القدس.

الى القدس:

ُنقلت إلى القدس عام ١٩٤٠، وعملت مساعداً لمفتشها، وفي هذه الفترة كلفت بوضع مناهج الدين الإسلامي للصفوف الإبتدائية.

وأذكر أيضاً أنني عينت مع الدكتور اسحق موسى الحسيني و عبد الحافظ كمال أعضاء في لجنة فاحصة لامتحان الشهادة العليا لعلمي المدارس الثانوية في اللغة العربية. وكان عدد المتقدمين إلى هذا الإمتحان كبيراً، ولكن أكثرتهم الساحقة كانت دون المستوى المطلوب للنجاح فيه. ولهذا كانت لجنتنا تصرف وقتاً طويلاً في فحصهم ولا ينجح إلا القليل النادر منهم. مما دعا مدير المعارف "فرل" بناءً على اقتراح من اللجنة إلى اتخاذ القرار القائل بعدم السماح لأي معلم بدخول هذا الإمتحان إلا بعد اقتناع لجنة خاصة بإمكانية نجاحه فيه، وكانت هذه اللجنة حسب قرار مدير مؤلفه من شخص واحد هو ابراهيم صنوبر دون سواه. وفي هذا السياق يجدر بالذكر أن هذه لم تكن هي المرة الأولى التي أعين فيها كللجنة من عضو واحد، فقد سبق أن عينت لحل مشكلة في قرية "البصة" من قضاء عكا، عندما اشتكي الأهالي من مدير مدرستها لما ثابرت على معاقرة الخمر. ولعل من الطريف في هذه الأحداث أن المعلومات المتوافرة لدى كانت تشير إلى أن معظم سكان هذه القرية يعاورون الخمر ولا سيما في الأعياد الدينية.

عينت مرة ثالثة لجنة من عضو واحد للتحقيق في إضراب طلاب المدرسة الصناعية في حifa، وكان مديرها مهندساً إنجليزياً اشترك في حرب العلمين. ولقضية إضراب الطلاب



هذه في شهر رمضان قصة ظريفة مطولة.

كانت مدرسة حيفا الثانوية الصناعية هي المدرسة الحكومية الداخلية الحديثة الوحيدة في فلسطين . وقد أقيمت بين حيفا وعكا على أحدث طراز لتعليم صناعات محدودة لطلاب يختارون من جميع أرجاء البلاد وبأعمار لا تقل - في الغالب - عن خمسة عشر عاماً قام طلاب هذه المدرسة باضراب عن تلقى الدروس في شهر رمضان، فامتنعوا عن دخول الصفوف مدعين بأنهم لم ينالوا ما يكفيهم من الطعام .

وعلى إثر هذه الحادثة قرر مدير المعارف مستر فرل تكليفي بتولي التحقيق في هذه القضية ، وأرسل نسخة عن قراره هذا إلى مدير المدرسة المهندس الانكليزي المستر روجرز مع العلم بأنه كان من غير المألوف في فلسطين أن يحقق موظف عربي مع موظف انجليزي على مستوى عالٍ .

حالما وصلت المدرسة للبدء في تنفيذ مهمتي ، قابلت مديرها وطلبت منه الشروع بالتحقيق ، فسمح لي ، فظهر لي من سماع أقوال الطلاب أنهم لا ينالون ما يكفيهم من الطعام، وبعد الانتهاء من التحقيق وجدنا بأن قسماً من الطعام المخصص للطلاب يتسرّب خارج المدرسة .

لقد شغلت الكثير من المناصب أثناء عملي في مدينة القدس. وأنذرت دائرة المعارف كانت إذا ما قررت اعتماد أي كتاب مدرسي في اللغة العربية أو الدين الإسلامي أو الرياضيات مثلـ فإن قرارها كفيل بأن يجعل مؤلف الكتاب من الأثرياء. فقد كانت تطبع آلاف النسخ التي تدرّ آلاف الجنيهات .

ومن أبرز ما حدث أثناء وجودي في القدس أن معلم الكيمياء في الكلية العربية سليم كاتول شقيق جبرائيل كاتول كان قد وضع أربعة كتب في علم الصحة لطلاب المدارس الإبتدائية. كما وضع أديب العامري مدير المطبوعات في فلسطين أربعة كتب أخرى في المادة نفسها، وللصفوف إياباً، الأمر الذي أدى إلى التنافس الشديد بين المؤلفين، كما وأدى بكليهما لإقامة دعوى ضد الآخر. ونظرت المحكمة في القضية في عدة جلسات، وقررت فيما بعد تحويلها إلى دائرة المعارف، معتبرة المسألة خارجة عن دائرة اختصاصها. ولأن إبراهيم صنوبر "لجنة العضو الواحد" تعود على حل مشاكل دائرة المعارف، فقد وصلني كتاب رسمي



صنيبر "لجنة العضو الواحد" تعود على حل مشاكل دائرة المعارف، فقد وصلني كتاب رسمي من مدير المعارف يطلب مني فيه تقديم تقرير عن المفاضلة بين كتب المؤلفين واختيار كتب أحدهما لاعتمادها. وتوقع أديب العامري أن انحاز إلى مؤلفات سليم كاتول إكرااما لشقيقه جبرائيل كاتول الذي تربطني به صداقة وطيدة. ولكن شكوك العامري لم تكن في محلها. فقد رأيت أن تقرر كتبه لأنني وجدتها بالفعل أفضل من كتب كاتول وأكثر دقة. ولكنني مع ذلك وضعت شرطا لإقرارها، وهو تصحيح ما ورد فيها من أخطاء علمية ولغوية، أرسلتها إلى دائرة مع تقريري. وقد وجدت أن المؤلفين قد وقعا في أخطاء علمية واحدة بسبب سوء فهمهما لموضوع في مناهج علم الصحة.

ومن الأحداث التي أذكرها أيضاً أن جبرائيل كاتول أعطاني نسخة من القرآن الكريم طالباً مني فحصها وتدقيقها لأن صاحب مكتبة "صفدي" يمتلك عشرة آلاف نسخة، مكتوب على كل منها أنها نسخ "فوتوغرافية" عن مصحف "الملك فؤاد". وكان هذا الإدعاء وحده كافياً لشرائها، وخصوصاً لصعوبة الحصول على ورق الطبع بسبب الحرب العالمية الثانية.

أما المكلف الثاني بالفحص والتدقيق فقد كان مفتشاً عاماً للديانة الإسلامية الذي قرأ بعض السور فأوصى بشراء جميع النسخ، الأمر الذي شجع دائرة المعارف على عقد صفقة مع الصفدي فدفع مبلغاً كعربون لهذا التعاقد.

بعد أن أمعنت النظر في قراءة وتدقيق نسخة القرآن الكريم، كتبت إلى دائرة المعارف موصياً بعدم الشراء، وذلك لأن مصحف الملك يميز بعلامات خاصة مطبوعة على بعض صفحاته، ولم تظهر هذه العلامات في مصحف الصفدي الذي وردت فيه أخطاء كثيرة. وأشارت في كتابي إلى أن شراء هذا المصحف وتعيميه على المدارس سوف يتثير ضجة كبيرة ضد دائرة المعارف من قبل المجلس الإسلامي. أما ما ذكر على هذا المصحف من أنه نسخة عن مصحف الملك فكان للتضليل والإغراء على الشراء، بالإضافة إلى أنه غير صحيح.

كانت الحياة السياسية في القدس في تلك الفترة مضطربة، فلم تكن المشكلات المطولة تستحوذ على الاهتمام أمام المشكلات الكبيرة الناتجة عن الحرب، ومن أهمها مشكلة التموين

بدأت دلائل الإنفصال البريطاني تلوح في الأفق، ولعل حركة التنقلات الواسعة النطاق، والترتيبات الإدارية الجديدة، وخطط دائرة المعارف التي تبدو مدروسة بعناية فائقة، كل تلك الإجراءات كانت تدل دلالة واضحة على أن الإنجليز يستعدون للجلاء عن البلاد. فقد صدر أمر يقضي بنقل مصطفى الدباغ مفتش المعارف في نابلس إلى يافا بلده ومسقط رأسه، ليخلف عبد اللطيف الطيباوي . ومع قرار نقل الدباغ صدر قرار آخر بتوفيقه إلى منصب مفتش معارف لواء نابلس، ومع أن هذا المنصب يمنعني مرتبة وظيفية أعلى، إلا أنني ولأسباب خاصة رفضت النقل في بداية الأمر رفضا شديدا.

وذكرت أن ابنتي التي تدرس في دار المعلمات ستتجد نفسها بلا مسكن إذا نقلت إلى نابلس. وأخذت أتدرب بأسباب أخرى كثيرة لم تقنع "فرل" أو تجد لديه أذنا صاغية. فقد تمسك بقراره ووفر لي تسهيلات كبيرة للإقامة في نابلس، فاتاح لابنتي مكانا في القسم الداخلي في دار المعلمات، وأعرب عن استعداده للمساعدة والتدخل في نقل إبني من دائرة ضريبة الدخل في القدس إلى دائرة ضريبة الدخل في نابلس. ووضع حاكم لواء السامرة اليد على البيت الذي كان يسكنه مصطفى الدباغ ليكون بيته لعائلتي بالأجرة نفسها دون زيادة.

هودة إلى نابلس:

عدت إلى نابلس عام ١٩٤٥ وكان أبرز ما جلب انتباхи عندما عينت مفتشاً لمعارف لواء السامرة (كما كان يسمى آنذاك) أن أعلى صف في جميع المدارس الثانوية كان هو الثاني الثانوي، أي كما كانت عليه الحال في أوائل سنين الإنتداب. وكان يقبل في دار المعلمات والكلية العربية والمدرسة الرشيدية عدد قليل من طالبات وطلاب هذه المدارس. ولذلك كان العمل على فتح صف ثالث ثانوي في نابلس وطولكرم وجنين وقلقيلية على رأس قائمة الأهداف التي وضعتها في برنامج عملي مستقبلا. وكانت أتحين الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك إلى أن أرادت دائرة المعارف إنشاء مدارس جديدة، وتعيين ما لا يقل عن (٣٠٠) معلم



وعلمة. واستطاع "فرل" أن يقنع السلطات باعتماد موازنة إضافية تكفي لتنفيذ الخطة.

إلا أنه لم يتمكن من تنفيذ الفكرة لعدم وجود العدد اللازم من المعلمين والمعلمات الأكفاء. عندما علمت بالأمر أيقنت أن الفرصة قد حانت لتحقيق الهدف المنشود. فكتبت إلى الدائرة طالباً فتح صف ثالث ثانوي في نابلس وطولكرم وجنين وقلقيلية، وتمت الموافقة على طلبي، وبناء على ذلك، أضيف صف ثالث ثانوي لكل مدرسة ثانوية ابتداءً من عام ١٩٤٦، كما أضيف صف رابع ثانوي عام ١٩٤٧، وبذلك استطاع طلاب وطالبات الصف الرابع الثانوي في هذه المدارس تقديم امتحان شهادة الإجتياز إلى التعليم العالي الفلسطيني في هذه السنة.

وكانت هذه الشهادة تخول حامليها -كما ذكرت- دخول الجامعات العربية والأجنبية، أما من يرغب (من خريجي المدرسة الثانوية) الحصول على وظيفة معلم فكان يطلب منه السعي إلى النجاح في امتحان أساليب التعليم، وكان خريج الكلية العربية يوظف بدون هذا الشرط. أما الحاصل على الشهادة الجامعية فيتم تعيينه على أن يقضى فترة سنتين بدون زيادة في الراتب إلى أن يجتاز امتحان تربية عملي وأخر نظري.

أما الأمر الثاني الذي جلب انتباхи في نابلس فكان الأبنية الحكومية للمدارس، إذ بقي عددها من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٥ كما كان عليه حالها في العهد العثماني، وكان كل توسيع يجري فيها يتم في أبنية مستأجرة شيدت أصلاً كمنازل لا كمدارس.

وكانت غرف هذه الأبنية ضيقة، وكذلك ملائتها، فضلاً عن سوء التهوية والإنارة فيها. وفيما كانت الغرفة النموذجية الواحدة تستوعب خمسين طالباً يعلمهم معلم واحد، لم تكن الغرفة المستأجرة تستوعب أكثر من نصف هذا العدد ويعلم فيها معلم واحد أيضاً، وهو وضع يستلزم زيادة نحو (٣٠٪) من أعداد الهيئات التعليمية على أقل تقدير. وفي عام ١٩٤٥ أراد حاكم اللواء أن يكتب تقريراً مفصلاً عن كل دائرة حكومية من دوائر لواء السامر، فتوقف عند دائرة المعارف ليستوضح حقيقة الأمر. وقد فاجأته بعد سؤاله بما يلي: تقولون أن الأتراك دخلوا البلاد عام ١٥٦٦ على عربات تجرها ثيران، وخرجوا منها عام ١٩١٨ على



عربات تجرها ثيران أيضا، ولكنهم خلفوا ورائهم في مدينة نابلس أربعة أبنية حكومية للمدارس، وحديقة للبلدية "المنشية"، وميدان المدينة الذي تتوسطه ساحة ضخمة، والمستشفى الوطني. أما أنتم فلم تقوموا ببناء غرفة واحدة طوال ٢٧ عاماً أي من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٤٥، والذي أخشاه هو أن ترحلوا عن هذه البلاد دون أن تتركوا فيها أي أثر ثقافي يذكر الناس بكم. وقد ترك هذا الإيضاح أثره الشديد على الحاكم، حتى أنه بصعوبة صدق الخبر. ولكنه قال لي: إنه يأسف أشد الأسف لهذا، وسيكتب في الحال تقريراً سورياً مستعجلًا للمندوب السامي يشرح فيه هذه القضية بالتفصيل. وطلب مني في الوقت ذاته أن أحث أغنياء المدينة على المساهمة في إنشاء أبنية للمدارس، كما يفعلون في بلاد الإنجليز. وكان جوابي أن الأغنياء في المدينة ليسوا في غناهم على المستوى السائد في بلاد الغرب، وأن ثرائهم إنما هو ثراء نسبي مقارنة بإخوانهم الفقراء. هذا، وقد برّ الحاكم بوعده وخصصت الحكومة على الأثر، ولأول مرة في تاريخها، مبالغ تصرف على إقامة أبنية للمدارس في المدن، على أن تقدم لجان المعارف المحلية مبالغ متساوية لها للغاية نفسها. وهنا برزت الصعوبة بالنسبة إلى بلدية نابلس التي لم تكن في وضع يمكنها من تقديم أي مبلغ. وكان الحل الذي اقترحه آنذاك هو الذي أنقذ البلدية من موقفها الحرج، وفتح باباً للحصول على مبالغ مالية تزيد على المطلوب منها، فوافق عليه الحاكم. وخلاصته أن يؤخذ رسم بسيط جداً عن كل فرد في البطاقات التي كانت تصرفها دائرة المؤمن لكل عائلة في المدينة. وبذلت البلدية العمل بعد حصولها على المال، فأضافت جناحاً شرقياً للمدرسة الفاطمية، وأقامت الطابق الأول في المدرسة الغزالية، وبنت مدرسة ابن قتيبة على ما ذكر. وفي بداية الشهر الخامس من عام ١٩٤٨ ظهرت بوادر إنسحاب سلطات الانتداب، وجاء آخر مدير للمعارف إلى نابلس وإاسمه "دوينسون" في زيارة مجاملة وداعية، وكانت قد أخبرت رئيس البلدية بذلك واتفقت معه مقدماً على ما سنطلب منه مدير المعارف المذكور. وعندما حضر سألهما عن مدى استعدادنا للمرحلة القادمة بعد الانسحاب، وأخبرنا أن اليهود أعدوا أنفسهم أعداداً جيدة. فقلت له: إنكم سترحلون في الخامس عشر من أيار القادم، ولكن الدوام المدرسي سيستمر بعد انسحابكم لمدة شهرين أخرين على الأقل لاستكمال المناهج المقررة، لذا فنحن في حاجة إلى رواتب المعلمين لهذه الفترة. وبعد ذلك اصطحببت "دوينسون" في زيارة لبلدية نابلس فطالب رئيسها بمبالغ تكفي للإنفاق على المستشفى الوطني والسجن المركزي ومركز رعاية الأمومة والطفولة وغير ذلك من المرافق العامة. فوعد مدير المعارف بأنه فور وصوله إلى القدس سيطلب مقابلة

المندوب السامي لإقناعه بحقنا في هذه المطالب. وهكذا كان، فقد حررت الحكومة شيكات مالية لجميع الغايات الآنفة الذكر وغيرها في جميع أنحاء فلسطين. وكان أحمد طوقان يعمل في جهاز الحكومة في القدس، فأحضر جميع الشيكات إلى نابلس، بعضها بإسمه والباقي باسماء البلديات وغيرها. فأرسل كل شيك إلى جهة، ومنها غزة مثلاً. وأعاد طوقان إلى وزارة المستعمرات بقية الشيكات المتعلقة بالمناطق التي احتلتها إسرائيل. واستكمالاً للحدث عن الأبنية المدرسية فقد كنت دائمًا أحث رئيس بلدية نابلس سليمان طوقان على شراء واستملك الأراضي الرخيصة الثمن لإقامة المدارس عليها في الوقت الذي يتوافر فيه المال.

لم أشاهد تغيراً ملحوظاً في الوضع الاجتماعي لمدينة نابلس، فالمراة كانت لا تزال محجبة، و(السفور) لم يبدأ إلا عندما بدأت الإضطرابات عام ١٩٤٨، وكانت البلدية برئاسة سليمان عبد الرزاق طوقان الذي ينتمي إلى "المعارضة"، وأعضاء المجلس البلدي منقسمون بين "مجلسي" و"معارض". وعندما بدأت حرب التقسيم عام ١٩٤٨ كان الجيش العراقي يرابط في مدن نابلس وطولكرم وجنين. وكنا نشعر أننا أصبحنا تابعين للأردن. فقد عينت الحكومة الأردنية إبراهيم هاشم الذي كان يحمل رتبة فريق، حاكماً عسكرياً لمدينة نابلس. أما فيما يتعلق بالمدارس فقد تأخر فتحها فيما كانت تدفع للمعلمين سلفات مالية متقطعة انتظاراً لعودة الجهاز التعليمي إلى العمل. ولهذا السبب سلم المبلغ الذي وردنا لرواتب معلمي الإنذاب للفترة ما بعد منتصف شهر أيار إلى بلدية نابلس فضّلته إلى ما في حيازتها من مال، مع ثمن مبني المدرسة الهاشمية القديم (مدرسة الخان) بعد بيعه. كما وأقامت المبنيين الجديدين للمدرستين الصلاحية والعائشية على أرض اشتراها من وقف آل التمر خلال العامين التاليين ١٩٤٩ و ١٩٥٠ على ما أرجح.

كان من نتائج اتفاقية رودس، تحويل قرى (المثلث) الفلسطيني، التي تقع على مرفوعات هامة من الناحية الإستراتيجية، من قرى عربية إلى إسرائيلية. ومن هذه القرى الطيرة، والطيبة وقلنسوة وباقية الغربية. وكانت هذه القرى تابعة لدائرة معارف لواء نابلس. ولما كان لكل منها حساب مدرسي خاص يودع في خزينة محاسب الدائرة، ويصرف على صيانة وتحسين مباني المدارس، فقد رأيت بحكم منصبي كمفتش للمعارف أن من واجبي إعادة النقود وتسليمها لكل مدرسة. وتوجهت إلى القرى الضائعة، وكان يرافعني متصرف



نابلس، وعندما التقينا بالمسؤولين في هذه القرى تألفنا أشد الألم وبكينا بكاء حارا. كنا نحن نبكي وهم يبكون، ودعناهم وطلبنا منهم السماح، ودعونا الله أن يعينهم.

كان إنقاذ ما تبقى من فلسطين السبب المعلن لبقاء الجيوش العربية، ومن بينها الجيش العراقي الذي دخل مدينة نابلس وأعلن فيها الحكم العسكري. وكانت كل الدلائل تشير إلى أن الأردن متسلّم زمام الأمور. فالحاكم العسكري إبراهيم هاشم أردني، والدوائر الحكومية والمؤسسات الأخرى تسلّم للأردنيين.

ازدادت الأمور تعقيدا، وأصبحت الظروف شديدة الصعوبة، أما المدارس فكانت مغلقة بسبب ازدحامها باللاجئين الذين هجروا من مدنهم وقراهم وعاد المسؤول العسكري الأردني إبراهيم هاشم إلى عمان. وأخذ الجيش العراقي المسؤلية على عاتقه، فعيّن أحمد طوقان مديرًا للمعارف كما عيّن إبراهيم صنوبر مراقبا عاماً لإدارة معارف فلسطين . ولكن الجيش لم يستطع في بادئ الأمر توفير الرواتب لعدم تمكّنه من جباية الضرائب، ولكن فيما بعد تمكّن من ذلك، وزوّدنا بالراتب الأساسي فقط. وطلب منا إعادة فتح المدارس، وتجاوينا مع طلبه. وبقينا كذلك إلى أن صدرت التعليمات للجيش العراقي بالإنسحاب من المدينة. وأرسلت الأردن حاكماً عسكرياً جديداً هو عمر مطر. ثم تلقينا دعوة من سليمان سكر وزير المالية الأردني لزيارة عمان للتداول والتفاوض بشأن رواتب الهيئات التعليمية، وحضر الإجتماع من الجانب الأردني سليمان سكر، و النمرى وكيل وزارة المالية. وسئل عن مطالبي، فأجبت بأنني أسعى إلى توفير ميزانية لتغطية مصروفات مدارس لواء نابلس، وتؤمن رواتب (٥٠٠) معلم ومعلمة ، وعرضت على الوزير بنود الميزانية، فدهش لطلبي هذا، وقال: إن معلمي ومعلمات جميع ألوية الأردن لا يتجاوز عددهم ٣٠٠ معلم ومعلمة. وأنباء مناقشة الموضوع أوضحت له أن في لواء نابلس (٥٠٠) غرفة تدريس تحتاج إلى (٥٠٠) معلم ومعلمة . وعندما طال النقاش والجدال قطع الوزير الحديث قائلاً لوكيل وزارته: أن إبراهيم صنوبر لا يجادل فيما يعرف، لأنّه متمكن من جوابه ورأيه.

وتم الإتفاق على حذف أو تقليل بعض البنود لتخفيض عشرة آلاف دينار من الموازنة المطلوبة، وبهذا الإتفاق مع حكومة الأردن تمكناً من السير قدماً في عملية التعليم بصورة



منتظمة حتى صدور قرار تغيير الحكم العسكري إلى حكم مدني عام ١٩٥٠. مع القرار الجديد عُيّنت مساعدًا لوكيل وزارة المعارف الأردنية وهذه الفترة اعتبرها أبرز فترة في حياتي المهنية. ومن الجدير بالذكر أن انه هنا بأننا قد عقدنا (بأعجوبة) امتحان شهادة "الاجتياز" إلى التعليم العالي الفلسطيني في الضفة الغربية في سنتي ١٩٤٩ و ١٩٥٠ على غرار ما كان يعقد عليه أيام الانتداب البريطاني على فلسطين.

في ممان:

عندما بدأت العمل كمساعد لوكيل الوزارة، وجدت أن النظام الإداري ضعيف جدا وأن الأمور تسير بطبيعتها دون تنظيم، فشرعت في وضع لوائح وأنظمة تتعلق بالترتيب الإداري، كما وضعت أنظمة ووسائل للعملية التربوية. وكان وزير المعارف في ذلك الوقت "الشنقيطي" وجاء بعده "الهنداوي" الذي لم يكن على علاقة جيدة بوكيل الوزارة، فحدّ كثيرا من صلاحياته كما تعمّد إهماله، واعتبرني الوكيل الفعلي للوزارة ومنع إرسال أية إضبارة لوكيل الوزارة وأعلن أنه سوف لا يوقع على أي معاملة إلا إذا رأى توقيعي عليها.

أثناء عملي كنت أتوخى الأمانة في تعين وترقية الموظفين والمعلمين. كما كنت أشعر أن من واجبي الإجابة عن تساؤل كل موظف أو معلم يستوضح سبب التأخر في ترقيته، وكنت أقف دائمًا مع المظلوم حتى يأخذ حقه.

جلست على كرسي وكيل وزارة المعارف عندما قررت الحكومة عزل مصطفى الدباغ وتعييني خلفا له، وأبلغني بذلك وزير المعارف الجديد أحمد الطراونة، وسألت عن سبب عزل الدباغ، فقال البعض أن السبب هو انتماسه أو ميله للحزب الشيوعي. وهذه التهمة كانت تكفي لاعتقاله مدة طويلة. وعندما أحسست بأنهم ينونون اعتقاله أسرعت بإرسال شخصين أحدهما إلى شركة الطيران لشراء تذكرة سفر له إلى بيروت حيث تقيم عائلة زوجته، والآخر حملته حقائب سفر الدباغ وطلبت منه أن يسبقه إلى المطار. وطلبت من الرجلين عدم العودة من المطار إلا بعد أن يشاهدوا الطائرة تحلق في الجو حاملة الوكيل المطلوب. وحدث ذلك بالفعل. وبعد ساعات قليلة داهمت الشرطة مسكنه فلم تجد أحدا.



بدأت في عام ١٩٥٧ أضع الخطط لتنظيم الوزارة وتطوير التعليم في الأردن على أساس علمية دقيقة. ولما كانت أية عملية تنظيم تحتاج إلى عمل جاد وشاق، وجهد متواصل يشارك فيه الجميع، فلم تجد خططي القبول الطوعي أو التجاوب السريع لدى بعض مدراء ومكاتب المعارف في الألوية، حتى أن أحدهم هو الذي كان يعمل مديرًا لمعرف إربد، أمطرني وأبلا من الانتقادات وأطلق سيلًا من النعوت، وتسائل "من الذي رمانا بهذا البلاء الذي يسمى ابراهيم صنوبر". ولكنه قد ندم على ذلك بعد استقالتي من العمل في الوزارة وجاء إلى بيتي معترضاً أشد الاعتذار ومتمنياً عليَّ خير الثناء سامحة الله.

أعاد مرکزي الجديد، كوكيل للوزارة، إلى ذاكرتي برنامج العمل الذي وضعته أثناء عملي في نابلس. وعندما تبرعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بمبلغ نصف مليون دولار لصالح وزارة المعارف فكرت بإعادة فتح ملف الأبنية المدرسية، خاصة عندما وجدت أن إنشاء الأبنية المدرسية قد توقف في مدينة نابلس من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٧. واتفقت مع وزير المعارف على أن نبني بهذا المبلغ مدرسة جديدة في مركز كل لواء من ألوية المملكة المختلفة. كما أقمنا في العطلة الصيفية معسكر الشباب للعمل. وفي هذا الإطار أقيمت مدرسة الملك طلال في نابلس بكلفة بلغت نحو (٢٥) ألف دينار، كما أقيمت أبنية مماثلة في مختلف ألوية المملكة دون استثناء، وكان المبنى حسب نموذج من مؤسسة أبنية المدارس في مصر. كما أقيم معسكر عمل في ملعب بلدية نابلس لنحو مائتي طالب ثانوي. وكانت قطعة الأرض الواقعة شرقي الملعب، ومساحتها سبعة دونمات، عبارة عن تلة كثيرة الصخور والأحجار والتراب، وببدأ الشبان، تحت إشراف المهندس عزت عبده السجدي يعملون فيها على مدى شهرين متوالين مستخدمين جرافة أمريكية ضخمة كنت قد كلفت (النقطة الرابعة) بإرسالها إلى نابلس. وهكذا تمت تسوية التلة بعد رفع ألف الأمتار المكعبة من الأتربة والحجارة.

بعد ذلك طلب مني مهندس البلدية أن أرسل له بضع مئات من الدنانير لتقسيم الأرض المذكورة إلى أقسام للزراعة، وهكذا كان. وأصبح المكان حديقة البلدية الغربية (المتنزه) يؤمنها الناس من مختلف أحياء المدينة.



خلال الفترة التي قضيتها في الوزارة لم أرضخ ولو مرة واحدة للضغوط التي كان يمارسها أصحاب النفوذ. ولم أفعل إلا ما كان يمليه علي ضميري.

تم اختياري ضمن الوفد الأردني المشارك في اجتماعات مؤتمر وزراء المعارف العرب الذي عقد في مصر عام ١٩٥٢. وكان رئيس الوفد أحمد طوقان وزير المعارف و خليل السالم من كبار موظفي الوزارة. وأثناء المؤتمر المذكور استطاع عوني عبد الهادي سفير الأردن في القاهرة، ترتيب اجتماع لهذا الوفد مع "جمال عبد الناصر" والتقينا الرئيس في نادي الضباط في الزمالك. وانضم إلى الاجتماع سليمان سكر وزير المالية الأردني.

طرق عبد الناصر إلى موضوع الاستعمار الأجنبي وتساءل: كيف يمكن للأردن أن يقبل المعونة من بلد استعماري مثل إنجلترا؟ فأجابه سليمان سكر موضحا أن الأردن بلد قليل الإمكانيات المالية والموارد، ولذلك فإن المعونات الخارجية ضرورة ملحة لا يمكن الاستغناء عنها، وأن المعونة الإنجليزية يصرف نصفها على التسلح، والنصف الآخر يصرف رواتب الجيش. وتساءل سكر: كيف يمكن للأردن أن يرفض معونة له؟ بعد هذا الإيضاح الذي قدمه وزير المالية لعبد الناصر، شعر الأخير أن معلوماته عن البلدان العربية لم تكن وافية، وإن فيها نقصا شديدا، فأوعز إلى وزيره "صلاح سالم" بأن يقصد زيارات للدول العربية لاستطلاع أوضاعها استطلاعا وافيا.

وفي سياق روايتي للأحداث التي أذكرها، لا بد أن أتوقف عند الحدث الأهم الذي كان له الأثر الأكبر في تغيير مجرى حياتي المهنية.

تلقيت مكالمة هاتفية من وزير الدولة تشير إلى أن رئيس الوزراء يرغب في ترقية معلمة معينة فحولت ملف المعلمة المقصودة إلى لجنة الترقيات في الوزارة، فأخبرني خليل السالم، رئيس اللجنة، أن دور (المعلمة) في الترقية يأتي (حسب تعليماتي) في آخر قائمة انتظار تضم أسماء (٣٠٠) معلم ومعلمة. وعندما علمت بذلك لم أتردد لحظة واحدة في تكليف خليل السالم الإتصال بالوزير ليبلغه عن أسف الوزارة لعدم استطاعتتها تنفيذ رغبة الرئيس فيما يتعلق بترقية المعلمة.

شعرت بعد ذلك أن رئيس الوزراء سيفضرم لي العداء، وأن الجو السائد لم يعد يناسبني فكتبت إلى وزير المعارف أخبره أنني اعتبارا من يوم غد (٢١ / ٢ / ١٩٥٩) أعتبر نفسي في إجازة. واعتبارا من هذا التاريخ أيضا لن أداوم في الوزارة. ثم تركت عمان متوجها إلى منزلي في نابلس. واتصل بي في اليوم التالي وزير المعارف هاتفيا ليستوضح الأمر، فأخبرته أنني مجاز. بعد ذلك عين وكيل جديد لوزارة المعارف. وكان أول قرار وقعه بعد تسلمه منصبه هو قرار ترقية المعلمة التي رفضت ترقيتها.

العود الثانية إلى نابلس

تفرّغت بعد ذلك للقراءة والكتابة، وبعد فترة قصيرة تسلّم "هزاع الماجالي" رئاسة الوزراء خلفا لسمير الرفاعي.

كنت من المدعىون إلى احتفال أقامته بلدية نابلس لتكريم جلالة الملك، وكان على رأس المدعىون هزاع الماجالي. وبعد انتهاء جلسة الترحيب طلب مني الماجالي مرافقته في زيارة لصنع الزيوت النباتية. وفي طريقنا إلى المصنع شرحت له بإسهاب عن مراحل تأسيسه، وكيفية تحوله من صناعة تنقية زيت الزيتون إلى صناعة السمن النباتي. بينت أوضاعه المالية السيئة التي كانت تهدد بانهياره. وحضرت رئيس الوزراء من أن الآثار التي ستتجمّع عن توقف هذا المصنع ستكون مدمرة لثقة الناس بالخطط التنموية للحكومة، خاصة أن الاقتصادي المعروف حمد الفرحان هو الذي شجع هذا المصنع على الإنتاج. شعرت بعد هذا الإيضاح أن الماجالي تفهم الموضوع بشكل جيد. وعندما وصلنا إلى المصنع كان في استقبالنا عدد من أعضاء مجلس إدارة الشركة، وعندما أرادوا شرح أوضاع المصنع أخبرهم رئيس الوزراء أن إبراهيم صنوبر تحدث عن الموضوع بما فيه الكفاية. وبعد عدة أيام حمل مندوب الحكومة إلى إدارة الشركة شيئاً بمبلغ مئة ألف دينار حسب طلب الشركة كدعم حكومي لإنقاذ المصنع. وقد طلب مني الماجالي آنذاك الرجوع إلى الحكومة بأية وظيفة أشاء أو أن أتولى رئاسة بلدية نابلس إذا أردت، فاعتذر عن العرض وقلت له بأن طلاب العمل كثيرون على باب مكتبه في عمان فلماذا يحمل نفسه العناء بالمجيء إلى نابلس لتتكليفي. فرد قائلاً: أنا لا أريد الناس

الذين يأتون إلى وأفضل أن أذهب إلى الناس الذين أريدهم. بعد ذلك قدم لزيارتني كل من أكرم زعيتر و كامل الشريف وأخبراني أن جلالة الملك يريدني أن أعمل مديرًا لسكة الحديد أو الطيران المدني، أو أية وظيفة أخرى أريدها. فاعتذر. ثم عاد مرة أخرى وأخبراني أن جلالة الملك يريدني أن أعمل في السلك الدبلوماسي، وقال أن السفارة في (لاغوس) تحتاج إلى سفير، فطلبت منها أن يقرئ الملك مني السلام مع اعتذاري عن قبول أية وظيفة حكومية وأن يذكرا (على سبيل النكتة) بأنني قد حثّتهما على العمل في السلك الدبلوماسي. وبالفعل، حدث ذلك وعين كلاهما سفيراً. وأقر هنا أن من أهم أسباب رفضي للسفارة هو اعتراض ابنتي (الدكتورة عصمت) على عملي في الخارج.

عيّنت عضواً في مجلس الأعيان الأردني بتاريخ ١ / ٣ / ١٩٦٢ وبقيت فيه نحو تسعه أشهر فقط ثم استقلت منه مع استقالة جماعية للمجلس لأسباب يطول شرحها.

ومن أبرز ما حصل في مجلس الأعيان أثناء المدة التي قضيتها فيه أن تقدمت الحكومة بمشروع قانون يقضي بأن تكون ترقية رجال القضاء على أساس الكفاية ثم القدم. وكان المعمول به هو أن ترقية القضاة تكون على أساس القدم ثم الكفاية، وإذا تساوى قاضيان في القدم والكفاية فيرقى الذي ذكر اسمه في الجريدة الرسمية عند التعيين أولاً ثم الآخر . أما السبب في تقديم مشروع قانون استقلال القضاء الجديد هذا، فهو خلو مركزين في محكمة التمييز ومجيء دور أضعف قاضيين لترقيتهم إلى مركزي المحكمة المذكورة التي يتطلب وضعها القانوني أن يكون فيها أعلى القضاة كفاية في المملكة.

وقد أيدَتْ مشروع القانون بكلمة مفصلة وظهر من نتيجة النقاش الذي جرى بعد الكلمة أن النية تتجه إلى قبول المشروع إذا تعهدت الحكومة بتنفيذ الإقتراحات التي ذكرتها في خطابي. ولكن الحكومة لم تقبل أن تقدم التعهد المطلوب وبناء على هذا وعلى العلاقة السيئة بين الأكثريَّة الساحقة من أعضاء المجلس ورئيس الحكومة وصفي التل قرر المجلس رَدَّ المشروع.

استدعيت وأعضاء المجلس لعقد جلسة طارئة لمجلس الأعيان وتساءلت عن السبب في

عقد هذه الجلسة؟ ولم أبذل جهداً كبيراً في اكتشاف السبب. فكل الدلائل تشير إلى أن الحكومة عثرت على مخرج يتيح لها حل مجلس الأعيان والاتيان بمجلس آخر تستطيع من خلاله تمرير ما يتطرق مع مصالحها. وتساءلت مجدداً لماذا؟ فلم يحول أي قانون جديد من مجلس النواب ليناقشه مجلس الأعيان. وليس هناك حدث سياسي هام أو مفاجيء يستدعي انعقاد المجلس، ولا اعتقاد أن سعيد المفتى رئيس مجلس الأعيان يحترق شوقاً لرؤساء أعضاء المجلس.

ركبت السيارة قاصداً عمان وقد قررت تقديم استقالتي فور وصولي. وعندما دخلت قاعة الاجتماعات في المجلس سألني خلوصي الخيري أحد أعضاء المجلس. لماذا تعقد هذه الجلسة يا أستاذ؟ فأجبته أنتي جئت من نابلس لأقدم استقالتي فدهش هو وكل الذين سمعوني من أعضاء المجلس. ثم عقدت الجلسة، فتبين لنا أن الحكومة هي المشتاقة لرؤيتنا وليس سعيد المفتى رئيس المجلس. واستبعد الأعضاء بعد حديث مطول مع جلالة الملك لتقديم استقالة جماعية، وهممنا بمعادرة القاعة والعودة إلى منازلنا. ولكنني أستوقفتهم وطلبت منهم أن يقدموا قبل خروجهم استقالة خطية ويوقعوا عليها. وفي طريق عودتي إلى نابلس كان يرافقني في السيارة موسى ناصر فسألني عن مرشحي الحكومة لمجلس الأعيان الجديد فأجبته "ريح حالك" سيخذلون أصدقائهم.

في سنة ١٩٦٢ نفسها اشتربت في مؤتمر إسلامي عالمي عقد في فندق الامبسادور في القدس بحضور صفة مختاره من كبار دعاة العالم الإسلامي في أقطار الأرض كافة. وبعد نهاية المؤتمر اتصلت إدارة أعمال المؤتمر بي طالبه مني أن اترأس وفداً لتسليم نسخة من قرارات المؤتمر إلى حكومتي العراق وسوريا. وكان الأخوان الثلاثة الأفارقة الذين تم اختيارهم ليشاركون معي في وفد المؤتمر هم : الشيخ أدم عبدالله الألوري من نيجيريا ، والشيخ توري من السنغال والشيخ أحمد حماد الله من مالي . فذهبنا جميعاً إلى بغداد. كان عبد الكريم قاسم على رأس الحكم هناك . وقد بقينا في بغداد عدة أيام ضيوفاً على الحكومة وعيثاً حاول هاشم جواد وزير الخارجية أن يجمع الوفد مع عبد الكريم قاسم إلا أنه لم يفلح، فسلمته نسخ القرارات وقررنا نحن السفر إلى سوريا . فاتصلت بالسفير السوري هناك لأبلغه أن الوفد عازم على الذهاب إلى سوريا، وأننا نأمل بمقابلة فخامة رئيس



الجمهورية الدكتور ناظم القدسي ، في اليوم التالي لوصولنا إلى دمشق. إلا أن السفير السوري حذرني من السفر إلى بيروت نظراً للأحكام العرفية المفروضة هناك وقرار الحكومة اللبناني منع الأردنيين من دخول البلاد لاعتقادها أن رئيس الحكومة الأردنية قد أرسل ماءً إلى الحزب القومي السوري لقلب نظام الحكم فيها . ولكن تحذيرات السفير لم تمنعنا من السفر إلى بيروت. وعندما حطت الطائرة في مطار بيروت الدولي وجدناه خالياً من الناس ومحاطاً بالجند ورجال الأمن. وصعد إلى الطائرة أحد ضباط الأمن وسأل عنّي وأبلغني بأنه ورجاله سيكونون تحت تصرف الوفد حسب أوامر مدير الأمن العام اللبناني مما أدهشنا جميعاً، فطلبت من الضابط المذكور أن يأتي لنا بسيارتين للسفر إلى سوريا . وكان في استقبالنا عند الحدود اللبنانية - السورية موظف من وزارة الخارجية السورية الذي رحب بنا ضيوفاً على الحكومة السورية . وفي صباح اليوم التالي استقبلنا رئيس الجمهورية الدكتور القدسي فقدمنا له قرارات المؤتمر الإسلامي .

أما أعضاء الوفد الافارقة الثلاثة فكانوا يرتدون ألبستهم الوطنية في المقابلات الرسمية، وكانت لي معهم محادثات مطولة تناولت كل ما يتعلق ببلادهم من النواحي الكثيرة المختلفة، الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها. وكان في هذه المحادثات الكثير من الغرائب والطرائف. وأشار بصوره خاصة إلى الشيخ أدم لاقول إنه لم يكن يتكلم إلا باللغة العربية الفصحى ويحفظ الكثير من المقامات الأدبية والأشعار الجاهلية والاسلامية القديمة والحديثة، وكان يطلب مني أحياناً بيان معاني كلمات جديدة عليه، ولما سأله عن سبب اقتصار كلامه على اللغة العربية الفصحى أجاب بأنه لم يسمع غيرها في حياته كلها مع أبيه .

بعد حرب ١٩٦٧ يتبع منوبر:

شاعت الاقدار أو شاعت أنظمة الحكم العربية أن تقع حرب عام ١٩٦٧ . ودخل اليهود الضفة الغربية وقطاع غزة، وكانت المدارس قد بدأت عطلتها الصيفية . أما امتحان الشهادة الثانوية (التوجيهي) فهو على الأبواب. وحاول حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس أن يعمل جاهداً لتصريف الشؤون الملحة في المدينة، وفي مقدمتها موضوع الامتحانات. وطلب من "موشي ديان" وزير الدفاع الإسرائيلي في حينه، أن تشكل هيئة فلسطينية تتولى الإشراف

على مدارس الضفة الغربية بالإضافة إلى عقد امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة . فأجابه الوزير بأن الاشراف على المدارس منوط بوزارة الدفاع وأنه يوافق على تعيين لجنة امتحانات عامة لتتولى اجراءات امتحان الشهادة الثانوية العامة وغيره من الامتحانات .

بعد ذلك أصدر "الجنرال فاردي" أول حاكم عسكري للضفة الغربية بتاريخ ٢١ شباط ١٩٦٨ امرا بتأليف لجنة امتحانات عامة، وكان اسمي بين اعضاء اللجنة. فجاء حمدي كنعان بعد اجتماعه "بقدري طوقان" مدير كلية النجاح الوطنية ليخبرني : أخذنا بعين الاعتبار وضع الآلاف من الطلبة الذين ينتظرون انعقاد امتحان شهادة الدراسة الثانوية ، وبعد مباحثات مطولة استمرت عدة أشهر مع موسيه ديان، تمت موافقة على تشكيل لجنة امتحانات. وأن أحد الضباط اليهود سيجتمع غداً بالاعضاء المرشحين لثبت اللجنة . فاعتذر له عن قبولي عضوية هذه اللجنة، الا أنه طلب مني حضور الاجتماع الذي سيعقد في اليوم التالي فوافقت .

وحدث اللقاء في اليوم التالي في حديقة بلدية نابلس (المنشية). وضم الاجتماع مدير التربية في الاوية ، ومدير كلية النجاح الوطنية. وفي بداية الاجتماع تلا الضابط الاسرائيلي نص كتاب تكليف لجنة الامتحانات . وأراد المجتمعون اختيار رئيس للجنة ، ورشحوني لهذا المنصب، ولكنني رفضت. فتدخل حمدي كنعان وخطبني بلهجة الأمر: نحن نأمرك وعليك الطاعة ، فهذا عمل وطني. قال ذلك لانه يدرك في قراره نفسه مدى صعوبة ادارة الامتحانات، ويدرك ايضا ان رفضي لهذه المهمة سيسبب اشكالا، لان احدا لن يقبل بهذا المنصب اذا ما رفضه ابراهيم صنوبر.

صمت أمام هذا الموقف، والتفت قدرى طوقان وحدق في وجهي، وشعرت أنه يسأل عن سبب صمتي، فقلت له: هذا تجني لا أستطيع مناقشته. ثم ذهب حمدي كنعان إلى عمان وطلب من رئيس الوزراء أن يشكل لجنة للإمتحانات في الضفة الغربية، فأصدر مجلس الوزراء على الأثر إقراره بتشكيل اللجنة المطلوبة برئاستي وعضوية شخص واحد، أرجح أنه قدرى طوقان أو عبدالله الخطيب.



على هذا الأساس بدأ عملي في قسم الامتحانات عام ١٩٦٨ . وكان من أبرز مسؤولي السلطة المحتلة في الضفة الغربية "شمونيل حاخام" ضابط التربية والتعليم. سألني هذا الضابط عن طبيعة علاقته بلجنة الامتحانات، فأجبته أن علاقته تنحصر في أن نرسل له نسخاً عن قراراتنا كلّجنة امتحانات عامة في الضفة الغربية، وأن يقدم لنا معونات مالية تسدّد عجزنا المالي . وفي لقاء تلفزيوني مع شمونيل حاخام وجه له المذيع سؤالاً حول علاقته بقسم الامتحانات، فأجاب: أن اللجنة مستقلة تماماً ولا يطلب منها سوى تزويدنا بنسخة عن قراراتها للعلم فقط.

ومن الأحداث التي أذكرها أن شمونيل اتصل بي هاتفياً في منتصف ذات ليلة يبلغني أن مدير الأمن العام اتصل به وأخبره أن أسئلة امتحان التوجيهي تُسرَب إلى الطلاب في مدينة أريحا قبل انعقاد الامتحان. فأجبته على الفور أن هناك خطأ ما، ولا أعتقد مطلقاً بصحّة المعلومات التي وصلت إلى مدير الأمن لسبعين هامين. الأول أنتي لا أصدق أن معلماً في مدرسة هشام بن عبد الملك يقوم بتسريب أسئلة الامتحان وهو يعلم جيداً أن عقوبة هذه الجريمة هي السجن بالإضافة إلى فقدان الوظيفة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن السبب الثاني الذي سأذكره لا يدعم السبب الأول فحسب، بل ينفي نفياً قاطعاً أي احتمال بالشك، وهو أن أسئلة الامتحان تصل يومياً إلى قاعات الامتحان قبيل انعقاد الامتحان وأنها تحفظ في خزانة حديدية داخل غرفة محصنة يحرسها إثنان في مديرية التربية والتعليم في بيت لحم.

تضع أسئلة كل موضوع من مواضيع الامتحان لجنة أمينة مؤلفة من ثلاثة أعضاء. وتحفظ الأسئلة بعد أن تطبعها لجانها في مقر لجنة الامتحانات العامة في نابلس بالصون والحراسة. ثم يتسلّمها مدير التربية والتعليم قبل فترة بسيطة من وقت الامتحان، وتحفظ في مكاتبهم في خزائن حديدية وغرف محصنة وعلى كل واحد منها حارسان.

نقل شمونيل توضيحاتي هذه إلى قائد الجنرال فاردي، فرد الجنرال قائلاً: على قسم الامتحانات في إسرائيل أن يتّعلم التنظيم والترتيب والدقة من لجنة امتحانات الضفة الغربية. وقد ذكر لي هذا ضابط التربية في أول لقاء له معي بعد حديثه مع الجنرال فاردي. وما أظنه

هو أن الجنرال قد علم بتسريب أسئلة الرياضيات في إسرائيل لامتحان الباروبي، وأن أسئلة أخرى قد سربت للطلاب في الضفة الشرقية.

اتصل بي ضابط التربية وقال لي بأن وزير المعارف ايغال ألون يدعوني ل الطعام الغداء معه في أحد فنادق تل أبيب. فأخبرت الضابط شموئيل حاخام بأنني أرفض الدعوة . وعندما استوضحتني قلت له: نحن في حالة حرب، فماذا يعني أن أقبل دعوة لتناول طعام الغداء مع ايغال ألون، فقال أنه سيكون غداء عمل ، هدفه الاجتماع للتشاور حول فكرة إنشاء كليات جامعية في الضفة الغربية. وعندما سمعت ذلك لم أتردد في قبول الدعوة لأنني اعتبرتها خدمة لقومي وأهلي.

دار نقاش استمر خمس ساعات بين المجتمعين من الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي. وتركز النقاش حول وضع الكليات المقترحة إقامتها في الضفة الغربية، وهل ستكون هذه الكليات تابعة للجامعة الأردنية، أم أنها ستعتبر تنظيمًا إداريا محليا؟

أقترح ألون أن تكون الكليات مستقلة يديرها سكان الضفة دون تدخل من أي طرف كان، ودون أن تكون تابعة لأي جامعة من الجامعات. وأجبت على اقتراحه قائلاً: كيف يمكن ذلك، ومعظم أولادنا يذهبون للعمل في الخليج العربي؟ ومن شروط توظيفهم هناك حصولهم على شهادات جامعية معترف بها عربياً ودولياً، وإذا كانت هذه الكليات مستقلة فمن سيعرف بها؟ قال: سنجد جامعة من جامعات دول أمريكا الجنوبية مثلاً تعترف بها. فقلت له: إذا فعلنا ذلك سيصبح ورق الشهادة أثمن من الشهادة نفسها، ولنجد أحداً في العالم العربي يعترف بها.

وفي نهاية النقاش في الاجتماع المذكور أخبرتهم أنني سأتوجه إلى عمان لعرض الأمر على المسؤولين الأردنيين. ولكن قبل ذلك نشترط أن تكون الكليات المقترحة تابعة للجامعة الأردنية، وأن يعتمد فيها المنهج العربي والهيئات التعليمية العربية، وأن تكون مفتوحة أمام كل طالب عربي من داخل الضفة المحتلة وخارجها تتوافر فيه شروط القبول. وسألني الوزير: هل يشمل هذا طلاب القدس؟ فأجبته: نعم، ويشمل طلاب الأردن أيضاً، فوافق الوزير على

ذلك على أساس أن يكون عدد الطلاب المقبولين من غربي النهر ضعف المقبولين من شرقه.

توجهت إلى عمان وحضرت اجتماعاً لجلس الوزراء ومجلس أمناء الجامعة الأردنية. وجرت مناقشة الموضوع من كل جوانبه، وكان القرار في النهاية رفض المشروع لأسباب كثيرة ذكرت في الجلسة. فذكرت لرئيس الوزراء أن الرفض يتطلب إيجاد حل آخر لطلاب الضفة الغربية يوفر لهم مقاعد جامعية. وعندما وجه رئيس الوزراء وصفي التل سؤالاً إلى عبد الكريم خليفة رئيس الجامعة الأردنية حول عدد المقاعد المقرر زيادتها في الجامعة الأردنية للعام الدراسي المقبل، فأجابه خليفة بأنه تقرر قبول (٧٠٠) طالب وطالبة. فأوعز الرئيس إليه بأن يزيد عدد المقاعد إلىضعف من أجل مصلحة طلاب الضفة الغربية بصورة خاصة. ووجه الرئيس الكلام إلى قائلاً أنتي أعدك أن أرسل وفداً إلى جميع الدول العربية ذات الجامعات لإقناع هذه الجامعات بضرورة زيادة عدد المقاعد لطلاب الضفة الغربية. عدت إلى نابلس وأعلنت ذلك بالتفصيل في الصحف العربية المحلية.

كانت مشكلة الطلاب المعتقلين من أهم المشكلات التي واجهتها أثناء عمله كرئيس للجنة الإمتحانات. وكنت أول من اقترح إقامة قاعات في السجون بعد أن علمت أن المعلمين من المعتقلين يقومون بتدریس الطلبة داخل السجون ويهيئونهم لتقديم امتحان شهادة الدراسة الثانوية. طلبت من السلطات السماح للطلبة المعتقلين بأن يتقدموا للإمتحان . وافقت السلطات على أن تحدّد هي من الذي يسمح له بالتقدم للإمتحان من الطلبة المعتقلين. وأنذرت في هذا المجال أن مديرية سجن الرملة للنساء حرمت المعتقلات من تقديم امتحان اليوم الأول من الإمتحان. أثار هذا الحرمان استنكار الطالبات وعبرن عن غضبهن بالبكاء الشديد، مما جعل مديرية السجن تشعر بالندم على فعلتها، فاتصلت بالجنرال فاردي تستشيره بالأمر. واتصل بي مساعد الحاكم العسكري في نابلس مبدياً رجاء الجنرال لعقد الإمتحان للطالبات وتم إجراء الفحص. ومثل هذا حدث في بيت لحم، حين حرم حاكمها العسكري الطلاب المعتقلين من تقديم الإمتحان وشعر بعد ذلك أنه ارتكب خطأ. وألح في طلبه إعادة عقد الإمتحان، فاستجابت لطلبه بشرط أن يتم قبول عدد أكبر من الطلاب المعتقلين لتقديم الإمتحان.

كانت لجنة الامتحانات في الضفة الغربية حريصة كل الحرص على رفع مستوى التعليم باختيار أفضل المعلمين المختصين لوضع أسئلة الامتحان. كما كانت تحرص على نزاهة الامتحان وتشدد في تعليماتها لرؤساء القاعات والمراقبين على محاربة الغش، وحرمان كل طالب من الامتحان مجرد محاولته الغش. كان التحضير للامتحان، ووضع الأسئلة وتصحيح الأوراق، وإعلان النتائج، من اختصاص لجنة الامتحانات وحدها. ولم يكن للأردن أي دور في ذلك سوى تبديل الشهادة التي تصدرها اللجنة بشهاده اردنية. وكانت وزارة التربية والتعليم الأردنية تستغرب قدرة اللجنة في الضفة الغربية على تنظيم الامتحانات بهذه الكفاءه العالية، خاصة فيما يختص بالتعليم الصناعي.

بدأت الأمور سنة ١٩٨٠ تتغير عما كانت عليه بالنسبة للجنة الامتحانات. وظهرت بوادر التدخل في شؤونها، على غير ما يرضيني، فأرسلت استقالتي إلى الحاكم العام في الضفة، فطلب مني أن أرجئ الاستقالة حتى نهاية الامتحانات. فوافقت على الطلب وتركت اللجنة بعد نهاية الامتحانات.

تركت في العام نفسه عضوية مجلس أمناء جامعة النجاح، لأن الأمور بشأن موظفيها لم تعد تسير على الشكل الذي ترتاح له نفسي. فالتيارات السياسية بدأت تتسرّب بشدة إلى الجامعة التي أصبحت مسرحاً لتنافسها. وحاوت مراكز القوى أن تفرض مطالبها وتتدخل في كل صغيرة وكبيرة، لتقرر وتتنفيذ، وتعين وتعزل، وتمنح وتمنع. وشخص مثلني لم يتعد التحيز لطرف ما، ويرفض أن يتلقى التوجيهات من أي طرف كان، ولا يستطيع التعامل مع إملاءات خارجية ، أو تنفيذ الأوامر الواردة كما لا يمكنه أن يواصل العمل في مثل هذا الوضع. وبعد أن أعلم مجلس الأمناء باستقالتي، قدم ثمانية أعضاء استقالتهم ومن بينهم يسري صلاح ومدحت كنعان والدكتور جودت تفاحة وموسى الجيوسي ورشيد مرعي وفدوى طوقان .

ويختتم ابراهيم صنوبر لقائنا معه قائلاً:

انتهت رحلتي مع الوظائف. وكنت مع كل منصب أشغله أحاول أن أكون مثلاً

الموظف الأمين المخلص في العطاء.

كانت حياتي هي وظيفتي، ووظيفتي هي حياتي، ولو عدت الى طفولتي وخترت من أكون، لاخترت أن أكون المعلم ابراهيم صنوبر المخلص لابناء وطنه وأمته، المحب للعلم والتعلم والمعرفة.

في عام ١٩٦٧ صدر كتابي الأول (من أحاديث رسول الله) وهو أول كتاب من كتب الأحاديث النبوية يسلسل أبجدياً ويحتوي دليلاً، ولهذا فقد حقق نجاحاً كبيراً.

وفي مؤتمر عقدته اليونسكو في الفندق الشتوي في مدينة أريحا سنة ١٩٦٥، والذي كان نوري فيه إلقاء محاضرة للموجهين التقى به محمد نوري شقيق وكيل وزارة التربية والتعليم، وعرضت عليه مخطوطة الكتاب للإطلاع عليها. فقال لي أن العديد من المهتمين بالأحاديث النبوية كانوا ينتظرون صدور مثل هذا الكتاب منذ فترة طويلة، لذا ستقوم الوزارة بطبعه على نفقتها. وقامت بالفعل بطبع اثنى عشر ألف نسخة منه وزعتها على جميع أنحاء العالم العربي.

ثم ألفت بعد كتاب الأحاديث كتاباً في الفقه بعنوان (دليل المسلم) صدر عام ١٩٧٥. وانتشر هذا الكتاب انتشاراً واسعاً وطبع منه ما يزيد عن أربعين ألف نسخة، منها ثلاثون ألف نسخة طبعتها وزارة التربية والتعليم الاردنية على نفقتها وزعتها في الضفة الشرقية، وما يزيد على عشرة آلاف نسخة طبعت في الضفة الغربية على حساب مديريات التربية والتعليم.

وفي عام ١٩٨٢ أنجزت كتابي "بهذا يعرف الله ولهذا يعبد الله" ، كنت قد جمعت مادته على مدى سنوات مضت . وقد قام طبيب مسلم بطبعه ونشره في الولايات المتحدة .

كما قامت وزارة التربية والتعليم الاردنية بطبع اربعة آلاف نسخة منه وزعتها على مختلف الجهات .

والجدير بالذكر أنني اشتربت في تأليف ثلاثة عشر كتاباً مدرسيّاً في الدين الإسلامي والحساب والهندسة وأخر ما وضعته في سنة ١٩٨٦ كان : (رسالة الجامعيين العرب في المجتمع العربي) و (رسالة الجامعيين العرب في ميادين التربية والتعليم) . طبعت منها جامعة النجاح الوطنية ثمانية آلاف نسخة على حسابها، وطبعت الهيئة الخيرية في غزة أربعة آلاف نسخة منها على حسابها.

أحمل الأوسمة التالية:

وسامي التربية الممتاز والدرجة الأولى معا، (وأننا الوحيد الذي أحمل هذين الوسامين معا). ووسام الاستقلال من الدرجة الثانية، والوسام الخشبي للكشافة وهو أرفع وسام فيها.

كما خدمت كعضو في مجلس التعليم العالي في الضفة الغربية، وفي مجلس أمناء جامعة النجاح الوطنية، ومجلس أمناء لجنة اليتيم العربي.

وبعد،

فإن المعلومات التي تذكرها إبراهيم سنوبر، قد ابرزت اهتمامه الكبير بحياته المهنية وأخلاصه لها. وإن، ورغم تقدمه في السن، نجده لا يزال يتبع جميع مجريات أمور التربية والتعليم، على صعيد دور الجامعات الفلسطينية وأوضاع طلبة المدارس ، ويعطي رأيه في كثير من الأمور التربوية عندما يطلب منه ذلك.

وكما أخبرنا إبراهيم سنوبر ، فإن ما ذكره في الصفحات السابقة هو غيض من فيض من تذكراته ، إذ أنه لو أراد روایتها بكل تفاصيلها ودقائقها وسرها وعلوها ، وحلوها ومرها ، وحقائق أمورها ، لاحتاجنا إلى الكثير من الصفحات . فابراهيم سنوبر كمثاله الآخرين ، عاصر هدا طويلاً من تاريخ بلادنا ، وتقلب في مناصب حساسة كثيرة لم تسنح إلا لثلاثة النادر من أبناء شعبنا الأ��باء.



ويجدر التنوية أننا لاحظنا التزام أبراهيم سنو بجانب التحفظ والحذر الشديد في سرد التذكريات. ولعل هذا يرجع إلى الظروف اللاحوال التي عايشها الشعب الفلسطيني باستمرار، منذ أوائل العشرينات.



الوثائق



دُوْلَتِ عَلَيْهِمْ سَهْلَتْ كَرْسِيْلَ

درجه وسوف عسكري	شهر و زوجه مندد او لوب اول مدین	ست و سفت و خدمت و انتساب صلاحیتی	ملک	تاریخ و محل و لادن	واسمه ای اسله عل اقامه	بدری اسله عل اقامه	شهر و شهری
	بهره		٢٠٩٤	٨٦٠	شده	رمانت محترم کرسیل	

شکان				سجل نفوسه قید او لنان محال			
بری	کوز	به	شلامت فارقه مزاته	بلایی	فاسی اعلاء و فرمی	ذاقی	مسکن نوع مسكن
				بیرم	تبریز	بهره	٢١١

بالاده اسم و شهر و محل و منی بحر او لان **کرسیل** دلت علب نک تابعینی حائز او لوب
اول سورنه جریده نفوسه مقيد او لدینقی منعر اشو بند کرو اعط افلدی **مار**

تمام شد

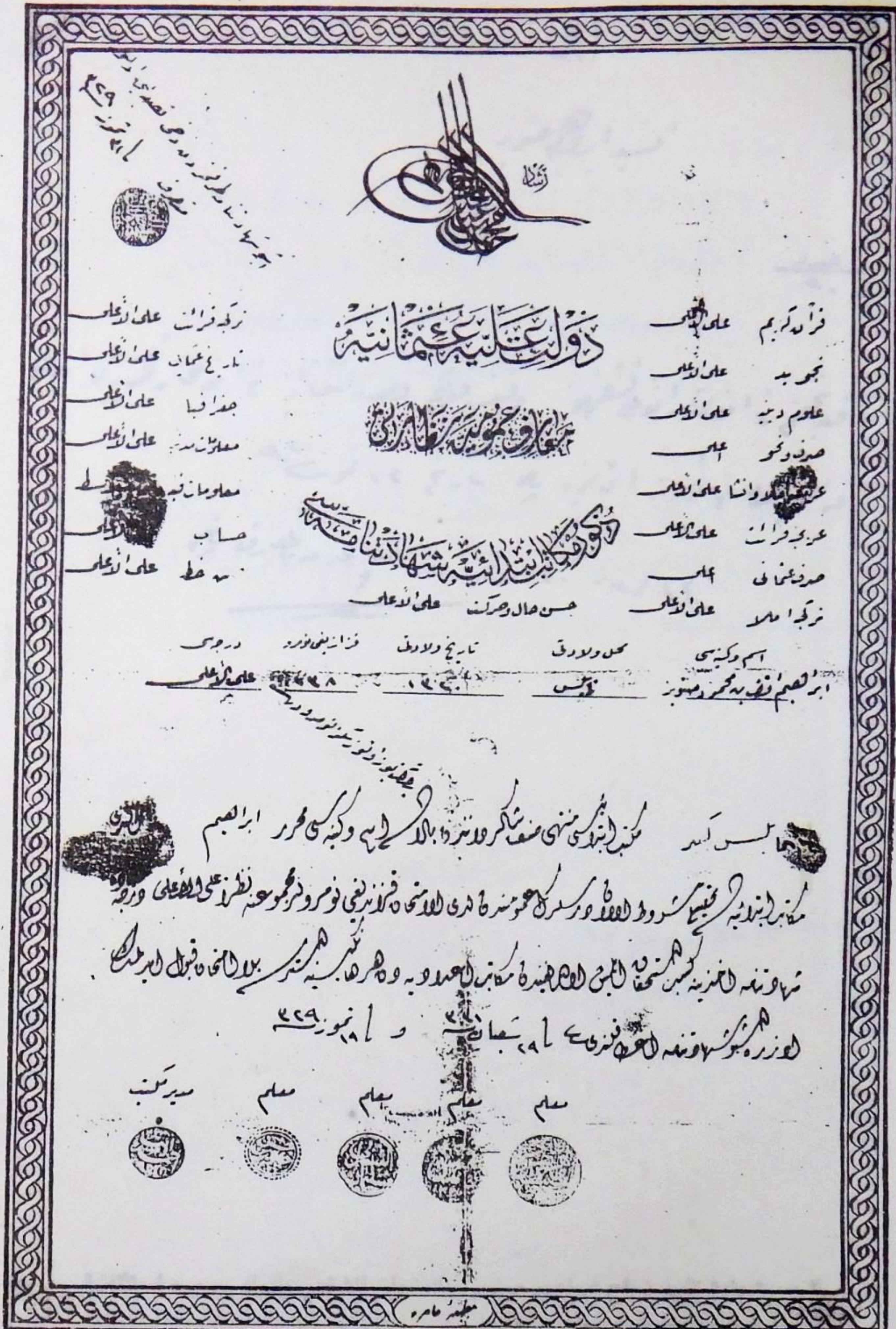


سجل نفوس نظامنامه سنک بشنجی مادہ سی

مشروحة حا

مehr	معاملات و تاریخ			

نَقْلُ مَكَانٍ وَقَوْعَادٍ



ابراهيم ضرب

مسيه

فوجئنا في ازدحام المدرسة وندر جوبي نصيحة اتناء في حادثة في مدرسة ازدياد
له بحسبه في المدرسة ازدياد نهر بابا ناصر ، نهر نهر نهر
صاحب مهنيته

٠٨/١٤

- ٣ - شهادة تثبت نجاح ابراهيم صنوبر بالامتحان الشفهي وقبوله بصورة استثنائية
بالامتحان التحريري لتعيينه كمعلم .

Jerusalem B. P. Boy Scout Association

جمعية كشافة بادن باول في القدس

Scoutmaster's Advanced Certificate

الشهادة العلية لمعامي الكشافة

WOOD BADGE

ان حضرة الاستاذ ابراهيم صنوبر قد حضر التدريب العلي
لعمي الكشافة وثبتت كفاءته ومتدرجه في هذا التدريب وقد اجتاز فحص الكشاف العلي
وعليه اعطيت له هذه الشهادة في ٧ ايلول سنة ١٩٢٢

رئيس التدريب

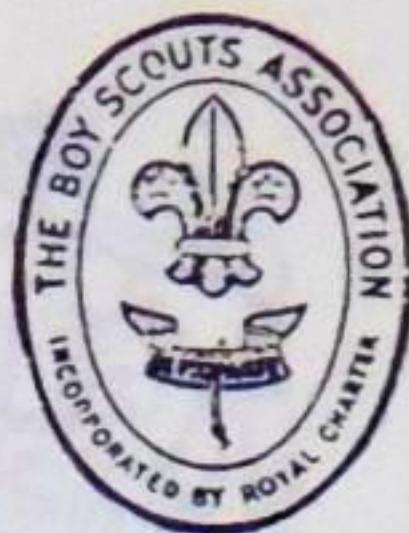
R.S.M.O'Ferrall سرطان

مندوب جمعية كشافة بادن باول في القدس

Humphrey Rosemore

٤ - اجتياز ابراهيم صنوبر للشهادة العليا لمعامي الكشافة .





GRANTED TO..... Ibrahim Effendi Snobar,

IMPERIAL HEADQUARTERS.
LONDON

DATED..... 16- 10- 22.

REGST. NO. 444.

WHO HATH SMENT WOODSMOKE BY TWILIGHT? WHO IS QUICK TO READ
THE NOISES OF THE NIGHT? LET HIM FOLLOW WITH THE OTHERS FOR
THE YOUNG MEN'S FEET ARE TURNING TO THE CAMPS OF PROVED DESIRE AND KNOWN DELIGHT



٥ - الوسام الخشبي للكشافة لابراهيم صنوبير .



الملكه الهاشميه

الرقم ١٢٦١
٢٠٠٣

التاريخ ١٩٥٢/١١/٢

الموافق

وزارة التربية والتعليم

مساعد وكيل الوزارة الادارى

الاستاذ السيد ابراهيم صنوب السحترم

استنادا الى الفقرة (د) من العادة الاولى من نظام
المجلس الاعلى للتعليم المرفق طبا ، قررت تعينكم عضوا في
المجلس المشار اليه . اتمنى ان يوفقنا الله جميعا لما فيه

خير الامة والوطن .

وأقبلوا فائق الاحترام

وزير التربية والتعليم

Handwritten signature of the Minister of Education.

ص

- ٦ - قرار تعين ابراهيم صنوب عضوا في المجلس الاعلى للتعليم .

مكتب قيادة اللغة الفرنسية
في ٢١ شباط ١٩٦٨

מפקדת אינדו
יהודה והשומרון
לשכת המפקד

حضره السيد احمد يوسف المحترم / مدير التربية والتعليم - الخليل
حضره السيد جريش قصصي المحترم / مدير التربية والتعليم - بيت لحم
حضره السيد رشيد مرعى المحترم / مدير التربية والتعليم - نابلس
حضره الدكتور عباس الكرد المحترم / مدير التربية والتعليم - رام الله
حضره السيد فريد بركة المحترم / مدير التربية والتعليم - طولكرم
حضره السيد اكرم العلمي المحترم / مدير التربية والتعليم - جنين
حضره الدكتور قدري طوقان المحترم / مدير معهد النجاح - نابلس
حضره الدكتور سليم الناشف المحترم / مدير المعهد الزراعي - طولكرم
حضره الانسة زكية البديري المحترمة / مديرية معهد المعلمات الحكومي - رام الله
حضره السيد عبد اللطيف عابدين المحترم / الخليل
حضره السيد ابراهيم صنوبر المحترم / نابلس

الموضوع / تشكيل لجنة امتحانات في اللغة الفرنسية .

لقد تعينتم بهذه اعضاء لجنة امتحانات في منطقة اللغة الفرنسية . وينحصر اختصاص اللجنة في معالجة جميع الشؤون التربوية المتعلقة بالامتحانات في كافة العدارات الابتدائية والاعدادية والثانوية ومعاهد التعليم ، وتعيين مواعيدها واصدار الشهادات بنتائجها .

يحق للجنة الامتحانات هذه تعيين سكريتير وتشكيل لجان فنية فرعية يكون اعضاؤها من بين اعضاء اللجنة ومن رجال التربية والتعليم خارج اللجنة . ترسل نسخة من قرارات اللجنة الى ضابط قيادة لشؤون التربية والتعليم في قيادة اللغة الفرنسية .

السوف ميشنه رفائيل فاردى
قائد منطقة اللغة الفرنسية

٧ - تشكيل لجنة امتحانات في اللغة الفرنسية وتعيين ابراهيم صنوبر رئيساً للجنة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وزارة التربية والتعليم



الرقم ١٤٧/١

التاريخ ٢٠١٩/٢/٢

الموافق ٢٠٠٤/٢/٢

الاستاذ ابراهيم صنوبر

رئيس لجنة الامتحانات في الضفة الغربية

الموضوع / وسام التربية

يسريني ان ابلغكم بأن الارادة الملكية السامية قد صدرت
بالانعام عليكم بوسام التربية من الدرجة العمتاز تقديرا لخدماتكم التي
قد صنعواها للتربية ومؤسساتها المختلفة.

اهنئكم متمنيا لكم التوفيق

وزير التربية والتعليم

نسخة / رئيس قسم السجلات

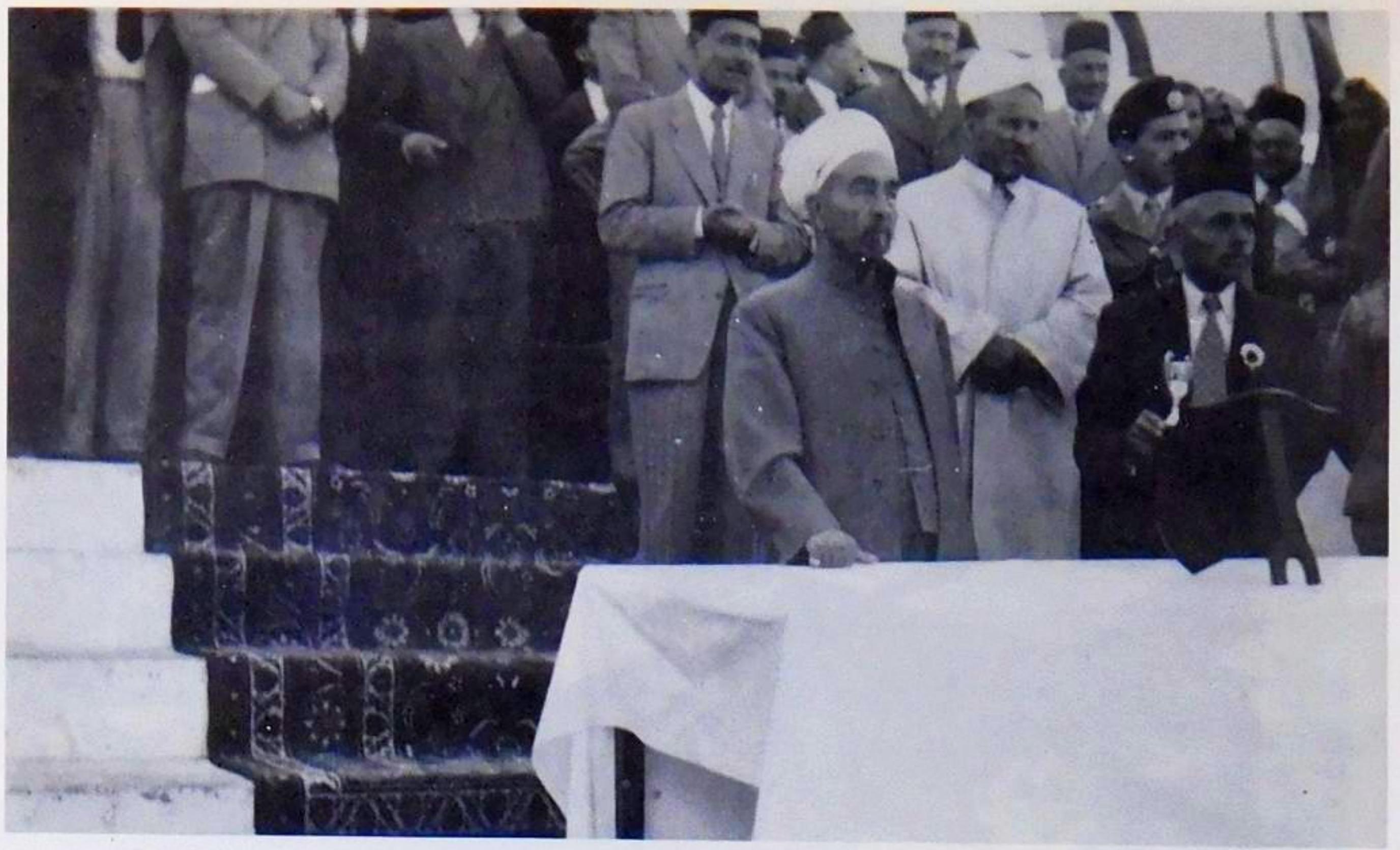
كتاب رقم. ٥٠٥/٤٣٧/٢٨/١٢٤٥

الصور





١ -جالس في الصورة " اسماعيل رصاص " مدير مدرسة المجد الابتدائية
والواقف الى يمينه " محمود علاء الدين " رئيس بلدية الرملة والى
يساره ابراهيم صنوبر . وقد أخذت هذه الصورة في أواخر العشرينات .



٢- ابراهيم صنوبر مع الأمير عبدالله ، في حفلة رياضية في أوائل الأربعينات .



٣- ذكرى مؤتمر تعليم أبناء اللاجئين الذي عقد في القدس من ١٣/١٠/١٩٥٢ إلى ٥/١١/١٩٥٢ ، ودعت إليه منظمة اليونسكو . يقف عن يسار إبراهيم صنوبر مندوب سوريا الدكتور صلاح المنجد ثم وزير المعارف السيد أحمد طوقان ثم مندوب العراق عبد الهادي المختار .



٤ - في مؤتمر وزراء المعارف العرب في القاهرة ، من ١٩٥٣/١٢/١٢ إلى ١٩٥٣/١٢/١٥ .



٥ - ذكرى مظاهرات سنة ١٩٥٥ ضد حلف بغداد ويظهر في الصورة إبراهيم صنوبر مشتركاً في تلك المظاهرة .



٦ - القاء خطبة بمناسبة توزيع الشهادات
في مدرسة خضوري عام ١٩٥٦ .





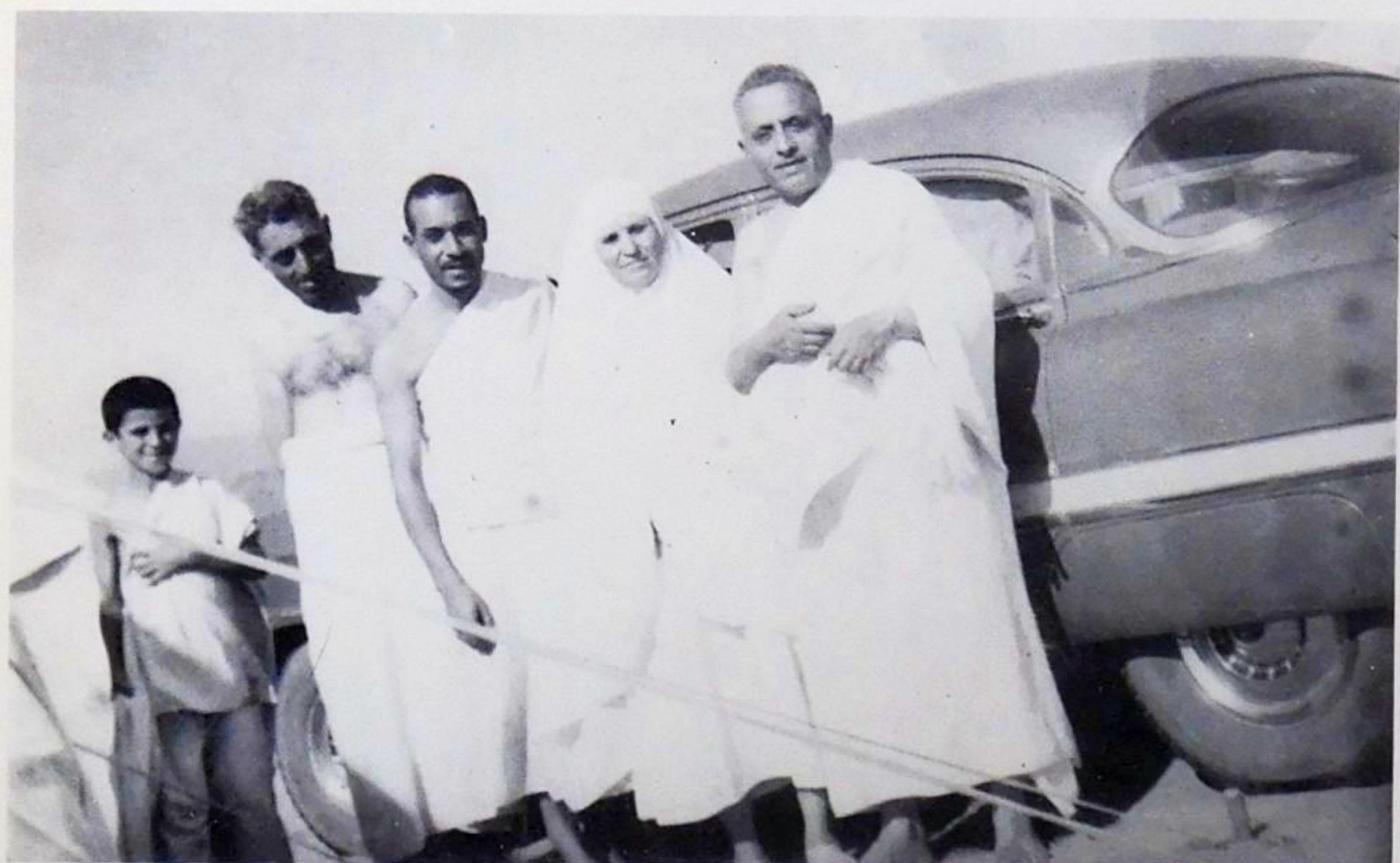
٧- ذكرى اتفاقية الوحدة الثقافية عام ١٩٥٧ ، في حفلة وزارة التربية
والتعليم المصرية في حديقة الأسماك .



٨- ذكرى تأبين المرحوم خليل طوقان في نابلس عام ١٩٦٢ .



٩- المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس عام ١٩٦٥ . يقف إبراهيم صنوبر على يمين رئيس الجمهورية العربية السورية أثناء مقابلته مع وفد إسلامي يترأسه، ويقف على يمينه الشيخ توري ممثل السنغال وعلى يساره الرئيس الشيخ أدم عبدالله الألوري ممثل نيجيريا وبعده الشيخ أحمد حماد الله ممثل مالي .



١٠- إبراهيم صنوبر وزوجته أثناء أداء فريضة الحج .